

الفصل الأول

الغزو الأوربي للخليج العربي

أولاً: الغزو البرتغالي:

كانت التجارة بين الشرق والغرب ، منذ أقدم العصور ، تسلك أحد الطريقين ، أما طريق البحر الأحمر ومصر ، أو طريق الخليج العربي والعراق والشام ، وكلا الطريقين تحت سيطرة العرب ، وكانت المشاكل والخلافات السياسية أحياناً تغلق أحدهما أو كليهما ، وحين يحدث هذا فإن نفانس الشرق التي تصدر إلى أوروبا تنقطع ، إلا ما يسلك منها طريقاً وعرّاً غير مأمون عبر آسيا الصغرى ، يضاف إلى ذلك أن أسعار تلك البضائع كانت عالية جداً ليس باستطاعة أغلب الأوربيين اقتنائها لكثرة الرسوم الكمركية وأجور الشحن والتفريغ لمرات عديدة كما أن سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين سنة 1453 جعل هذا الطريق تحت رحمة العثمانيين.

أصبح البحث عن طريق جديد مهمة ملحة للدول الأوربية ، وكانت البرتغال هي الدولة الأوربية التي كرسّت أكبر قدر من جهودها للبحث عن هذا الطريق مدفوعة بعوامل اقتصادية ودينية ، ساعدها على ذلك استقرار أحوالها السياسية وتشجيع ملوكها للرحالة ، فقد اهتم هنري الملاح بشؤون البحر والإبحار ، وأنشأ مدرسة بحرية مكنت البرتغاليين من إدخال تحسينات في بناء السفن ، واستخدام البوصلة البحرية ، وكان هدف الملاح كما يقال أن يهزم الإسلام (تماماً ونهائياً) ، ولا بد من القول بأن الوجود العربي في بلاد الأندلس قد ساعد الأسبان والبرتغاليين على الإطلاع على المعارف العلمية العربية والاهتمام بدراساتها ، فقرأوا رحلة ابن بطوطة الذي زار الهند والصين وأفريقيا ووصف ثراء التجار الواسع حتى إن الواحد منهم ربما امتلك المركب العظيم بجميع ما فيه.

وصححت المعلومات العلمية العربية الأفكار الخرافية السائدة في أوروبا خلال العصور الوسطى ومنها أن المياه الاستوائية في درجة الغليان وأن الشياطين والعفاريت يسكنون البحار والمحيطات.

بدأ البرتغاليون بالاتجاه نحو السواحل الشمالية والشمالية الشرقية للقارة الأفريقية فقد وصل هنري الملاح إلى سبته عام 1415 ، ووصل آخرون إلى الرأس الأخضر ، وقام باتليمور برحلته في عام 1487 حول سواحل أفريقيا الغربية بقصد الوصول إلى الهند ، أما فاسكودي كاما فإن لرحلته أهمية خاصة لأنه أول من وصل إلى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح وقد وضع تحت تصرفه دي كاما جميع المعلومات التي تم التوصل إليها وعد كل من وقع عليه الاختيار مجنّداً في خدمة ملك البرتغال ، وصحب دي كاما معه بعض من له معرفة باللغة العربية أو اللغات الأفريقية ، وعين لكل سفينة مرشداً ومساعد مرشد ورنيساً للبحارة ومشرفاً وعشرين بحاراً ممتازاً وعشرة من العاديين وثمانية من قاذفي القنابل وأربعة رجال للأبواق وضباطاً لفض المنازعات وأمين حسابات وحلاق يعمل جراحاً في نفس الوقت وترجماناً وقسا من العمال المهرة وعشرة من الخدم ، وألحق بسفن الحملة سفينة صغيرة وأربعة للتموين لما يكفي الحملة لمدة ثلاث سنوات.

سارت حملة دي كاما بمحاذاة السواحل الغربية ووصلت إلى النهاية الجنوبية للقارة الأفريقية (رأس الزوابع) الذي سماها رأس الرجاء الصالح ثم استدار شمالاً إلى السواحل الشرقية فوصل موزمبيق ومالندى في 1498.

وقد شاهد البرتغاليون سفناً عربية أدهشتهم صناعتها وحجمها ، فألواحها غير مسمرة بمسامير وملاحوها يحملون معهم البوصلة البحرية والمزاويل والخرائط الجغرافية ، فأراد دي كاما الاستفادة من الخبرة العربية للوصول إلى الهند فكان لقاؤه مع أحمد بن ماجد ، وإقناعه بقيادة السفن البرتغالية عبر المحيط إلى الهند.

استفاد دي كاما من أين ماجد ، ومن خبرة العرب العلمية ، فق ذكر المؤرخ البرتغالي (باروش) في كتابه (آسيا البرتغالية) أن دي كاما التقى في مالندى بمسلم يدعى المعلم كانا (ووجد لديه عدداً كبيراً من الخرائط والآلات ، وقد ظهر مما ذكره قطب الدين النهروالي في كتابه (البرق اليماني في الفتح العثماني) الذي يرجح تاريخه إلى الفترة القريبة من مجيء دي كاما أن المعلم كانا لم يكن إلا أحمد بن ماجد وهو أكبر وأهم ملاحي العرب في كل العصور ، وله مصنفات مهمة في الجغرافية الملاحية واسمه الكامل شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي النجدي ، من مواليد جلفار (رأس الخيمة حالياً) على الساحل الغربي للخليج العربي ، وأثار ابن ماجد كثيرة يبلغ عدد الموجود منها في القوت الحاضر (أربعين) مؤلفاً ومعظمها قد تمت صياغته شعراً ، غير أن واحداً من مصنفاة الكبرى قد كتب نثرأ ، ويحمل عنوان (كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) وفيه يتحدث عن الملاحه بجانبها النظري والعملى ، وعن البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي والملايو ، وقد وصف هذا الكتاب بأنه ذروة التأليف الفلكي لملاحي عصره.

ومهما يكن من أمر فقد وصل دي كاما إلى الهند في (23 مايس 1498) فكان ذلك نذيراً للتجارة العربية بالاضمحلال ، إذ كان الطلب الأول للبرتغاليين من حاكم كاليكوت عام 1500 أن يحرم التجار العرب من الإقامة داخل حدود مملكته ، ولتحقيق هذه السياسة آسي البرتغاليون مركزاً تجارياً في كوا Goa على الساحل الغربي للهند والذي أصبح منذ سنة 1509 قاعدة لهم الرئيسية في شبه القارة واندفعوا أكثر نحو الشرق إلى جزر التوابل (اندونيسيا والملايو) ليؤسسوا لمائة السنة التالية ، احتكار لتجارة التوابل مع أوروبا قائماً على المحطة التجارية الكبرى التي أسسوها في مالقا .

الاحتلال البرتغالي لمنطقة الخليج العربي :

كانت النتيجة السريعة والمحقة لرحلة دي كاما ثورة في تجارة أوربا ومجداً عظيماً للبرتغال الذي أصبح ملوكه يطلقون على أنفسهم (سادة الفتح والملاحة والتجارة في الهند والحبشة وجزيرة العرب وفارس) وبعد وصول البرتغاليين مباشرة إلى الهند صمموا على السيطرة على كل التجارة التي كانت في السابق بأيدي العرب ، فأسسوا عدة محطات تجارية وأصبحت البضائع تنقل بالطريق البحري بواسطة السفن فقط ، وكان هذا الطريق على الرغم من وجود بعض المصاعب فيه ، إلا أنه كان طريقاً رخيصة للتجارة ، ومنها توزع البضائع إلى الأسواق العالمية حيث ترسل البضائع إلى المدن الأوروبية فنيسيا ومرسيليا وبرشلونة وجنوا بواسطة النقل البحري الرخيص .

بدأ الصراع بين العرب والبرتغاليين حول التجارة مع الهند ، ولم تكن العلاقات بين الطرفين ودية قبل هذا التاريخ ، حيث كانت تعود إلى فترة حكم العرب للأندلس والصراع مع البرتغاليين ، ولم يمض وقت طويل على انتهاء الحكم العربي فضلاً عن ذلك فإن سقوط القسطنطينية بأيدي المسلمين في عام 1453 ، وإخراج العرب المسلمين من أسبانيا في نهاية 1500 بمهاجمة السفن العربية فأحرقوا عشر سفن مصرية عند الموانئ الهندية، وفي السنة التالية ، صمم ملك البرتغال على منع العرب من المتاجرة بالتوابل وقام بأول عمل حربي ضد العرب سنة 1502 عندما حاولوا منع أية سفينة عربية من دخول البحر الأحمر ، وفي سنة 1503 أرسل ملك البرتغال أسطولاً جديداً لإغلاق مدخل البحر الأحمر بوجه السفن العربية ، وفي سنة 1505 وصل البرتغاليون إلى جدة وميناء مكة المقدسة، عند العرب والمسلمين وأصبحوا بذلك يهددون ليس التجارة العربية فحسب وإنما السيادة العربية.

أرسل ملك البرتغال في سنة 1506 أسطولاً جديداً إلى الشرق لتعزيز الوجود البرتغالي في السواحل الهندية ، وكان من ضمن قادة الأسطول ألفونسو البوكيرك الذي كلف بـ(سد منافذ التجارة التي يستخدمها المسلمون) (البحر الأحمر والخليج العربي) فبدأ البوكيرك نشاطه باحتلال جزيرة سومطرة والواقعة في مواجهة الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية وفي منتصف الطريق تماماً بين الخليج العربي والبحر الأحمر على الرغم من أن الجزيرة كانت جرداء لا تحتوي على مظاهر الحياة ، وأراد اتخاذها قاعدة لإغلاق مضيق باب المندب والنزول في عدن ، فتمكن من محاصرة باب المندب تماماً ، ومنع التجار العرب من دخول الهند ، إلا أنهم فشلوا في احتلال عدن ، وبذلك استطاعوا احتكار التجارة والقضاء على الرخاء الاقتصادي العربي وقطع أرزاق الآلاف من العرب.

بعد إغلاق البحر الأحمر بوجه التجارة العربية توجه البرتغاليون بقيادة ألفونسو البوكيرك في سنة 1507 للسيطرة على منطقة الخليج العربي ، وقد بدأ البوكيرك عمله بوضع الخطط لاحتلال جزيرة هرمز في مدخل الخليج العربي ، إيماناً منه بأهمية هذه الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجي الكبير ، بدأ البوكيرك حملة على الخليج العربي ومعه سفناً كبيرة ذات أسلحة نارية فتأكد لم يكن لسكان المنطقة قبل بها ، فقام بمهاجمة السفن العربية والموانئ العربية فأحرق في رأس الحد ثلاثين أو أربعين قارباً من قوارب الصيد ، ثم توجه إلى قلعات ومنها إلى قريات التي استعد أهلها للدفاع عنها ، وحدثت مقاومة عربية بطولية ضد الغزاة ، فقام البرتغاليون بقتل كل من يقع في أيديهم من أهل المدينة دون تمييز بين النساء والأطفال والرجال ، فكانت مجزرة رهيبه قام فيها البرتغاليون بقطع الأذان وأنوف أهل البلدة تشفياً وانطلقوا في عمليات سلب ونهب ، وبعد ذلك شرع البوكيرك بمهاجمة مسقط ، وهي ذات موقع سوقي خطر يتحكم في مدخل الخليج العربي ووصفت بأنها (مدينة كبيرة كثيفة السكان وهي المنطقة الحرة الرئيسية لمملكة هرمز ، ولا بد أن تمر فيها جميع السفن التي تزاول الملاحة في هذه المناطق ... ومسقط سوق قديم للخيل والبلح ، كما أنها مدينة أنيقة جداً ومنازلها جميلة ، وتحصل على موادها التموينية من الحنطة والشعير والذرة والبلح من داخليتها وهي جزء من مملكة هرمز ... وقد البرتغاليون مقاومة عنيفة من أهل مسقط فعمد البوكيرك إلى ضرب المدينة بالمدافع وأحرق مبانيتها وجوامعها وجميع السفن التي كانت راسية في مينائها ، ويذكر مايلز أن مساعدي البوكيرك قاموا بدور كبير في عمليات القتل والاعتداء على الحرمات وكان البوكيرك أكثرهم قسوة وهمجية وإجراماً ، فقد أطلق العنان لجنوده بعد أن جمعهم في ساحة المدينة ليذبحوا كل ما يصادفونه من المواطنين نساءً وأطفالاً أو شيوخاً دون تمييز، ثم بعد ذلك أمر الجنود بتدمير المدينة وحرقها، وبعد خراب مسقط مضى البوكيرك في غزوته التخريبية على طول الساحل العماني ، وقد هدد حاكم صحار التابع لمشيخة هرمز، البوكيرك بأنه سيلقى مقاومة عربية أشد مما أظهرته المدن العمانية السابقة ، وقد حشد أكثر من (7) آلاف مقاتل فاضطر البوكيرك إلى قبول إعلان خضوع حاكم صحار للبرتغال واكتفى منه برفع العلم البرتغالي على حصن المدينة ، وتوجه البوكيرك إلى خور فكان التي قوام سكانها العرب الغزاة البرتغاليين ، فهوجمت المدينة ودمرت وأحرقت ، وقد جدعن أنوف وأذان الأسرى ، ومن خور فكان توجه البوكيرك إلى رأس مسندم ومنه مباشرة إلى هرمز ، واستهدف البوكيرك من إسرافه في هذه الأعمال الوحشية إشاعة الرعب في نفوس سكان هرمز التي اتجه إليها وضرب عليها حصاراً محكماً .

احتلال هرمز :

كانت هرمز مشيخة عربية كبيرة ، استطاعت أن تسيطر على أجزاء مترامية من شواطئ الخليج العربي وجزره ، فشملت عمان حتى القطيف شمالاً ، ودخلت جزر البحرين في تبعيتها ، وضمت قسماً كبيراً (من الساحل الشرقي ، إضافة إلى عمقها الكبير داخل الجزيرة العربية وحتى مشارف عدن ، وتعد مشيخة هرمز آنذاك من أعظم الكيانات التي شهدتها منطقة الخليج العربي ثراءً وأكثرها ازدهاراً وأوفرها سكاناً ويبلغ عدد سكانها أربعين ألف نسمة كانوا يعيشون على مستوى عال من الرفاهية ومرجع ذلك إلى الازدهار إلى اتساع دائرة النشاط التجاري الذي كان يمارسه سكان هرمز ، التي غدت حلقة مهمة في نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وأصبحت مثلاً يضرب على الثراء وأطلق عليها (لؤلؤة الشرق).

استعدت هرمز لصد الغزو البرتغالي ، وتذكر المصادر البرتغالية أن أربعمائة سفينة اشتركت في الدفاع عن الجزيرة ، وكان من بينها ستون سفينة كبيرة ولا شك أن هذين الرقمين يقومان على المبالغة ، ولكنهما يدلان على المركز الذي كانت تشغله هذه المشيخة في شرقي الجزيرة العربية.

وقد تجمعت قوات من الفرسان على الساحل ، وكان ملك هرمز صيباً (صغير السن يسمى سيف الدين ، ويحكم نيابة عنه مستشار الشيخ عطار ، وإزاء استمرار القصف المدفعي البرتغالي ، لم يجد سيف الدين بدأ من طلب المفاوضات ، وأسفرت

المفاوضات التي جرت في جو إرهابي كانت نتيجتها إن قام البوكيرك أثناء المفاوضات بطعن الشيخ العطار مستشار الملك فجأة (عندما كان يتحدث معه فأرداه قتيلاً) ، وأسفرت المفاوضات عن الصلح بشروط قاسية منها: أن يضل سيف الدين في منصبه حاكماً (على هرمز تحت السيادة البرتغالية ، وأن يدفع لملك البرتغال جزية سنوية ، وأن يسمح للبرتغاليين بإقامة منشآت عسكرية في بلاده.

ولهذا الغرض استولى البوكيرك على قطعة من أرض الجزيرة لإقامة حصن عليها، وتقرر في الصلح عدم فرض الضرائب على السلع التي يجلبها البرتغاليون من هرمز والموانئ التابعة لها ونصت شروط الصلح أيضاً (على عدم السماح لسفن الأهالي بممارسة نشاطها في الخليج إلا بتصريح خاص صدر من البرتغاليين.

باحتيال هرمز فرض البرتغاليون سيطرتهم على المنطقة ، بشكل لا يقبل الشك فلم يعد باستطاعة أية سفينة المتاجرة من الخليج دون أن تحمل جوازاً خاصاً بذلك وفي عام 1509 عين البوكيرك بمنصب نائب ملك في الهند ، خلفاً لفرانشيو الميدي أول من تولى هذا المنصب عام 1505 وتوفي 1515 في كوا ، وفي السنة نفسها هاجم البرتغاليون البحرين ونزلوا في مكان قريب من المنامة ، استفاد البرتغاليون من موقع جزيرة هرمز الاستراتيجية المهم ، وجعلوا منها محوراً للفعاليات البرتغالية وازدهرت تجارتهم مع موانئ الخليج الأخرى لكن تعسف البرتغاليين وجسامة القيود والضرائب التي كانوا يفرضونها على الجزيرة أدت إلى تدهور تجارتها وانخفاضها بشكل مستمر طيلة القرن السادس عشر ، وعلى الرغم من استمرار ملوك جزيرة هرمز فإن سلطتهم أصبحت أسمية حيث أجبروا على تأدية يمين الولاء للبرتغاليين ، ولم يسمح لهم بمغادرة الجزيرة دون موافقة مسبقة من السلطات البرتغالية .

الثورات العربية ضد البرتغاليين :

لم يعد يذاع نيا وفاة السفاح البرتغالي البوكيرك حتى شرع العرب سكان الخليج العربي لتحريك ثورة تحت قيادة حاكم هرمز على الحكم البرتغالي ، بحيث امتدت الثورة إلى جميع القواعد والحصون البرتغالية في منطقة الخليج العربي ، فقد كان الحاكم البرتغالي حكماً صارماً اتسم بالجبروت والنزعة التخريبية والتعسف واستنزاف أموال الأهليين .

فتوصل عرب الخليج بقيادة ملك هرمز إلى وضع خطة محكمة لإشعال نار الثورة الموحدة ضد الوجود البرتغالي ، ففي (30 تشرين الثاني 1521) قام رئيس التجار بمهاجمة السفينتين الموجودتين في ميناء هرمز ، وأشعل النار على سطح أحدهما فكان ذلك إيذاناً ببدء الثورة ، فتمكن الأهالي من مهاجمة البرتغاليين ، وحاصروهم في القلعة ، أما في بقية المناطق فقد تعرض البرتغاليون إلى هجمات منظمة ، وشهدت الثورة نجاحاً عظيماً وتعرض البرتغاليون إلى خسائر فادحة ، ولم ينج البرتغاليون في قلهات الذين عرفوا بالثورة قبل إعلانها واتخذوا للأمر عدته.

نقل البرتغاليون تعزيزات عسكرية إلى جزيرة هرمز التي اتخذها الثوار موقفاً لقيادة الثورة ، وأعملوا القتل في أهلها وأحرقوا جثثهم وقضوا على الثورة بعد سلسلة من الأعمال الوحشية ، وكان لهذا الأسلوب الوحشي في قمع الثورة أصدأوه في المناطق الأخرى من الخليج العربي وكان من نتائج إخفاق الثورة أن ألغى البرتغاليون الإدارة العربية في حكم هرمز ، وأسرفوا إسرافاً في التنكيل بالأهالي ، فأخذوا يغادرونها إلى جزيرة قشم المجاورة ، فتعقبهم البرتغاليون واضطر الأهالي إلى أن يتفرقوا فرادى بين موانئ الخليج العربي.

وعلى الرغم من سياسية الاضطهاد التي مارسها البرتغاليون ، فقد عاد العرب في هرمز إلى الثورة ثانية في عام 1526 وشاركهم حكام مسقط وقلهات ويرجح مايلز أسباب الثورة إلى سياسة الاضطهاد والظلم والتسلط على يد (ديجوري مليو) قائد الحامية البرتغالية في هرمز وقد وصلت أنباء الثورة إلى نائب الملك في البرتغال في (21 شباط 1526) فأرسل حملة عسكرية فوراً ، مؤلفة من خمس سفن للقضاء على الثورة وانتزعت القائد البرتغالي الفرصة فقام بتعزيز الوجود العسكري البرتغالي في عمان وإنشاء عدد من الثكنات وشن هجوم على ظفار لغرض تدميرها وهكذا استطاع البرتغاليون القضاء على الثورة ، ومع ذلك استمرت روح المقاومة والثورة حتى أن ملك البرتغال أمر عام 1529 بتحويل كافة القوى والجماعات المناوئة للبرتغاليين من جزيرة هرمز.

وثارت البحرين في عام 1529 فأرسل البرتغاليون حملة لكنها فشلت نتيجة لنقص استعداداتها وكان لهذا الفشل انعكاسات سيئة على هيبة البرتغاليين ونفوذهم في المنطقة واثارت القطيف في عام 1550 واستمر العرب في ثوراتهم حتى تمكنوا في النهاية من القضاء على البرتغاليين.

وفي الوقت الذي تحمل العرب أعباء المقاومة للوجود البرتغالي ، فقد رحب الفرس ومنذ البداية بالغزاة البرتغاليين وعقدوا معهم معاهدة تضمنت اعتراف الصفويين باستيلاء البرتغاليين على هرمز ، وقيام تحالف عسكري بين فارس والبرتغال في الخليج العربي ظاهره ضد الدولة العثمانية وحقيقته ضد الوجود العربي ويتضح ذلك من الرسالة التي بعثها البوكيرك إلى شاه فارس ، والتي أعلن فيها تأييده الشديد لأطماع الفرس في الخليج العربي بقوله:

(وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة).

وهكذا وضع البرتغاليون سفنهم الحربية وأسلحتهم النارية في خدمة الأطماع التوسعية الفارسية في الخليج العربي ، ولم ينفرط عقد هذا التحالف إلا بعد ضعف البرتغاليين وظهرت قوى أوربية ومنافسة فتحول الفرس إلى جانب القوة الجديدة. إما العثمانيون ، فقد وصلوا إلى منطقة الخليج العربي ، بعد فترة من السيطرة البرتغالية ، وكان العثمانيون قد احتلوا بغداد في عام 1534 والبصرة في عام 1546 وخضع مشايخ البحرين والقطيف للسيطرة العثمانية ، وبذلك استطاع العثمانيون بسط نفوذهم على الجزء الشمالي من الخليج وبيد الصراع الحربي بين الدولة العثمانية والبرتغاليين ، وبخاصة بعد التأييد الذي قدمه البرتغاليون لثوار البصرة ، قاعدة الأسطول العثماني في الخليج العربي وكانت أهم الحملات العثمانية حملة بيبي باشا أو بيبي باشا (1550-1552) التي تحركت من السويس إلى مسقط واستولت على القلعة البرتغالية فيها وأسرت قائد حاميتها ، ثم تقدمت الحملة إلى جزيرة هرمز ، فضربت عليها حصاراً محكماً وكادت تسقط في أيدي العثمانيين لولا أن بيبي باشا قائد الحملة أمر برفع الحصار عنها فجأة واتجه بسفنه إلى البصرة.

ورأى السلطان أن تصرف بيبي باشا كان خيانة عظيمة فأمر بإعدامه ومصادرة أمواله ولم يكن بمقدور الدولة العثمانية أن ترسل حملات بحرية أخرى إلى شرقي الجزيرة العربية أو الهند للتصدي لمراكز البرتغاليين لأن السلاح البحري العثماني كان قد توقف عن النمو منذ منتصف القرن السادس عشر.

ولابد من القول أن البرتغاليين استطاعوا الاحتفاظ بقوتهم في الخليج العربي حتى نهاية القرن السادس عشر ، وفي بداية القرن السابع عشر حيث حدثت تطورات مهمة أدت إلى إضعاف قوة البرتغاليين وتلاشي سيطرتهم على الخليج وهي:

1-توحيد العرش البرتغالي والعرش الأسباني 1580-1640.

2-تزايد قوة عرب الخليج العربي وخاصة عمان.

3-ظهور منافسين جدد هم الإنكليز والهولنديون.

4-تحول الموقف أصفوي عن البرتغاليين.

5-كراهية السكان للبرتغاليين.

6-غلبة الروتين والتعقيدات الإدارية على الجهود البرتغالية في البحار الشرقية.

الوجود الهولندي في الخليج العربي:

كانت هولندا تابعة للتاج الأسباني ، إلا أن الهولنديين تمردوا على أسبانيا وأعلنوا الانفصال عنها ، فأقفلت أسواق البرتغال بوجه الهولنديين سنة 1594 لأن البرتغال وأسبانيا كانت تحت عرش واحد الأمر الذي دفع الهولنديين إلى الاتجاه نحو الشرق ، وكانت أول شركة للاتجار مع الشرق هي شركة فانفير VANVER التي أرسلت أول رحلة لها بقيادة هوتمان HOUTMAN في عام 1595 ووصلت الرحلة إلى السواحل الشرقية من الهند ، وحققت انتصاراً بعقدتها أول اتفاق هولندي مع ملك بنتم فتح فيه جزر أرخبيل الهند الشرقية للتجارة الهولندية وأدى هذا النجاح إلى قيام شركات هولندية متعددة ومتنافسة للاتجار مع البلاد الشرقية ، وقد وصل إلى المياه الشرقية أسطولاً هولندياً في الفترة بين 1598-1603 الأمر الذي دفع الهولنديين إلى توحيد عدد من شركاتهم الصغيرة في جمعية الاتجار مع البلاد البعيدة التي تطورت إلى شركة الهند الشرقية الهولندية في عام 1603.

بدأ الصراع والتنافس بين الهولنديين والبرتغاليين بعد وصول السفن الهولندية إلى المياه الشرقية وعمل الهولنديون خلال العشرين سنة الأولى من نشاطهم على إضعاف البرتغاليين في مياه أفريقيا والهند ، في الوقت الذي كان الإنكليز يعملون على إضعافهم أيضاً في مياه الخليج العربي ، ولذلك فقد كانت العلاقات بين الهولنديين والإنكليز في حوض الخليج العربي حسنة من أجل القضاء على العدو المشترك.

أحرز الهولنديون انتصارات مهمة في الربع الأول من القرن السابع عشر فضلاً عما أوقعه من ضرر كبير للبرتغاليين في أفريقيا والهند ، فقد أصبح للهولنديين في بلاد الهند سبعة وثلاثون مركزاً وعشرون حصناً وقلعة ، ولم تمضِ عشرون عاماً على تأسيس الهولنديين شركة الهند الشرقية حتى أصبحت لهم الأرجحية في بحار الهند ، ففي سنة 1614 كان هناك ما لا يقل عن سبعة وعشرين سفينة حربية كبيرة ، وكان معدل أرباح الأسهم سنوياً خلال المدة 1605-1614 زهاء 31% على الرغم من مصروفات التسليح الباهضة.

رحب الإنكليز والفرس في بادئ الأمر بمجيء السفن الهولندية إلى مياه الخليج العربي لما توقعوه من موازنة القادم الجديد ، وقد حصل الهولنديون على فرمان من الشاه عباس سنة 1624 أسس بموجبه مركز هولندي في بندر عباس ، إلى جانب المركز الإنكليزي ، وكان الإنكليز والهولنديون يتعاونون أحياناً في حرب البرتغاليين ، كما حدث في معركة سنة 1625 البحرية بالقرب من بندر عباس ، حيث نجح أسطول إنكليزي - هولندي مؤلف من ثماني سفن من دحر أسطول برتغالي من ثماني سفن أيضاً.

تعاضمت السيطرة الهولندية وشهد أواسط القرن السابع عشر انتقال السيادة في مياه الشرق من البرتغال إلى هولندا ، ويرجع النجاح الذي أصابه الهولنديون إلى ما اشتهروا به من تخفيض أسعار البيع واستخدام القوة العسكرية لانتزاع الامتيازات الضرورية ، ففي عام 1645 هاجموا جزيرة قشم لكنهم فشلوا ، وقد عمد الشاه الفارسي عباس الثاني (1641-1666) إلى منحهم المزيد من التسهيلات التجارية ، فأعطاهم حق تصدير الحرير من سائر الموانئ التابعة لسلطته معفاً من الضرائب ، الأمر الذي أدى إلى نجاح الهولنديين في توسيع نفوذهم التجاري في فرس وامتداده إلى العراق ، ففي سنة 1650 وصلت عشر سفن هولندية إلى ميناء بندر عباس وأفرغت حمولتها من السلع الهولندية ، وقد استورد الهولنديون في تلك السنة كميات كبيرة من الحرير الفارسي بلغت أثمانها مليون ونصف مليون باون ، وفي السنة التالية وصلت إلى الميناء نفسه إحدى عشر سفينة هولندية تحمل سلعاً تقدر قيمتها بمائة ألف باون ، الأمر الذي أدخل الفرع في نفوس رجال شركة الهند الشرقية الإنكليزية ، ازداد التنافس بين الإنكليز والهولنديين في السيطرة على أسواق فارس وحوض الخليج العربي ، ولم يبق للتجارة الإنكليزية مجال يذكر في تلك الأسواق ، وبقيت السيادة الهولندية ما يناهز العشرين عاماً ما بين (1650-1670) وساعد على ذلك الأمور التالية:

1-أن أصحاب الشركة الهولندية كانوا في نفس الوقت هم حكام البلاد ومن ثم صاروا أكثر تقبلاً للنفقات الحربية لفرص الامتيازات بالقوة.

2-تمتعت الشركة الهولندية باحتكار تام بينما تعرضت شركة الهند الشرقية الإنكليزية لكثير من النقد ، وكانت الحكومة تسمح من وقت لآخر لجماعات أو أفراد بممارسة التجارة في المحيط الهندي ، أي أن احتكارها للتجار لم يكن تاماً. أدت الأحداث على المسرح الأوربي إلى انتقال السيطرة الاستعمارية في الشرق من هولندا إلى إنكلترا ، فقد شغلت هولندا بالحرب مع فرنسا زمن لويس الرابع عشر ، فاستفاد الإنكليز من ذلك فائدة كبيرة ، إذ لم يعد في وسع هولندا أن تعنى العناية اللازمة بسيطرتها فيما وراء البحار ، ففقدت الشركة الهولندية التأييد المادي والمعنوي الذي كانت الحكومة الهولندية تقدمه لها خلال القرن السابع عشر وكان أهم عامل في ازدهار نفوذها ثم حدث بعد ذلك بزمن يسير أن اتحدت المملكتان إنكلترا وهولندا ، فاندثرت المنافسة الإنكليزية الهولندي ، وحل محلها تعاون وثيق ضد لويس الرابع عشر.

ظهرت بوادر الضعف على الهولنديين في أواسط القرن الثامن عشر ، وبدأت سيطرتهم تتلاشى في الخليج العربي ، وأخذوا يتراجعون أمام هجمات العرب الذين شرعوا منذ سنة 1695 ، بمهاجمة السفن الهولندية بعد ما أدركوها بأن الهولنديين يناصرون الفرس ويمكنهم من توطيد أقدامهم في بعض مناطق الخليج العربي ، وكان سقوط آخر مراكز الهولنديين ، وهو حصن في جزيرة خرج على أيدي العرب سنة 1766 ، كما سيأتي الحديث عنه في الفصل القادم ، وعندئذ انتهت حركات هولندا في الخليج العربي.

الغزو الإنكليزي للخليج العربي:

جرت عدة محاولات إنكليزية للتجارة مع الشرق برأ ، وكان أنطوني جنكنسون JENKINSON راند هذه المحاولات في عام 1561 ، لكن محاولته لم تسفر عن أمر ذي بال ، وبعده قام أربعة مغامرين هم: نيوبري JNEWBURY ، ووالف فيج R.FITCH ووليام ديدس W.DEEDS ، وجيمس ستوري J.STORY بمحاولة للوصول إلى الشرق عن طريق طرابلس الشام التي وصلوها في سنة 1583 ، ثم غادروها برأ إلى بغداد والبصرة ومنها إلى الخليج العربي حتى هرمز حيث أسرهم البرتغاليون ، وأفلت نيوبري من أيدي البرتغاليين ووصل إلى لندن حيث نشر في سنة 1591 تقريراً عن خبرات الشرق التي لا حصر لها من توابل وعقاقير وأنسجة حريرية ولؤلؤ البحرين ، فأسأل هذا التقرير لعاب الإنكليز الذين أرسلوا أقدم بعثة تجارية إنكليزية إلى الهند عن طريق البحر مباشرة مكونة من ثلاثة سفن في سنة 1591 ، وفي سنة 1599 أسست شركة اتحاد المغامرين بهدف الاتجار مع الشرق ، وقد وافقت الملكة إليزابيث على عقد تأسيس الشركة في (31 كانون الأول 1600) والتي أصبحت تسمى شركة الهند الشرقية الإنكليزية.

أرسلت الشركة بعثتها الأولى في سنة 1601 ، بعد عام من تأسيسها فكانت بعثة رابحة ، وكان من جملة بضائعها المستوردة ما زنته مليون باون من الفلفل ، ثم بعد ذلك بسنتين أبحرت بعثتها الثانية وفي هذا الصدد يروي لنا بروس BRUC مؤرخ شركة الهند الشرقية ، إن الربح الصافي لتلك البعثتين بلغ 95% فلا غرابة أن تكون تلك التجارة الرابحة قد دفعت بشركة الهند الشرقية إلى الاستمرار في سبيلها على الرغم من شدة الأخطار وفي مقدمتها الأخطار الناجمة عن منافسة البرتغال في ذلك السبيل ، وقد استطاعت الشركة في سنة 1608 من تأسيس قاعدة لها في سورات SURAT على الساحل الغربي من الهند القريبة من مستعمرة كوا GOA البرتغالية.

وكان من حسن الصدف للإنكليز أن بداية ظهورهم في الخليج حدثت في وقت اشتداد النزاع بين الشاه الفارسي والبرتغال ، ففي سنة 1614 أرسلت شركة الهند الشرقية رسولين من سورات إلى أصفهان للأجل تمهيد سبل المتاجرة مع فارس ، وبمساعدة السير روبرت شيرلي ، الذي وصل مع أخيه أنطوني شيرلي إلى فارس في سنة 1598 ، وعملا في بلاط الشاه ، استطاع الرسولان الحصول على ثلاثة فرامين (مرسوم) متماثلة ، وهي وثائق رسمية موجهة من قبل الشاه إلى مختلف حكامه لإسداء المساعدة لجميع السفن الإنكليزية في الموانئ الفارسية ، ثم بعد ذلك بسنتين ، أي في سنة 1616 ، استطاع بعض تجار شركة الهند الشرقية الحصول على فرمان آخر فيه عهدو بتقديم المساعدة وضمان لحرية التجارة ، وكان هدف الشركة بيع الأصواف الإنكليزية في فارس مقابل الحصول على الحرير.

وتقدمت سفن التجارة الإنكليزية من سورات إلى جسك عند مدخل الخليج العربي وذلك سنة 1618 ، وأخذت التجارة الإنكليزية في جسك بالازدهار ، بفضل الاتفاق المعقود مع الشاه الذي أعفى البضائع الإنكليزية من الضرائب الكمركية ، وقد عقب نجاح هذه الخطوة الأولى ، خطوات ناجحة إلى موانئ الخليج الأخرى ، وفي (19 آذار 1620) أرسل الملك جيمس الأول كتاباً إلى الشاه عباس يشكره فيه على ما أعطاه للتجار الإنكليز من امتيازات ويطلب منه السماح لشركة الهند الشرقية بتأسيس مصنع للحرير في ميناء جسك ، وبهذا سمح الشاه بعد ذلك بزمن يسير.

عندما أخذت العلاقات تتوثق بين الفرس والإنكليز لتوحيد الجهود ضد البرتغاليين ولرغبة الشاه والفرس عموماً في إضعاف القوى العربية ، أصبح البرتغاليون يواجهون خصماً من نوع آخر يختلف عن الأفارقة والأسبويون الضعاف التسليح ، فلقد ظهر الإنكليز والهولنديون على المسرح لينازعوا البرتغال في السيطرة على البحار ولينافسوه تجارياً ، ثم يقوموا في النهاية بتمزيق أوصال إمبراطوريتهم في الشرق ، وقد حدثت اشتباكات كثيرة ودامية بين هذه القوى الثلاث غير إن القوة البرتغالية كانت قد بدأت بالفعل تتقلص ولم تعد قادرة على التصدي للتنافس غير المتكافئ.

حدث الصدام الأول بين الإنكليز والبرتغاليين سنة 1620 في معركة جسك البحرية التي انتصر فيها الإنكليز ، ففي ذلك العام كانت قد أبحرت أربع سفن إنكليزية إلى سورات في الهند ، ثم بعد ذلك اتجهت اثنان من تلك السفن إلى ميناء جسك فحاول البرتغاليون التصدي لتسلل الإنكليز إلى مراكز احتكارهم ، وإحباط وخنق التجارة الناشئة ، وقد نشبت المعركة بين الأسطولين الإنكليزي والبرتغالي في يوم (16 كانون الأول 1620) واستمرت تسع ساعات بدون توقف ، غير أن الأسطول البرتغالي اضطر إلى الانسحاب تحت ستار الظلام ، ونتيجة لتلك المعركة أصبح الإنكليز المسيطرين على جسك.

بعد الانتصارات الأولية الإنكليزية ، أخذ الأسطول الإنكليزي القيام بمعاملات تهدف إلى عرقلة النشاط التجاري للبرتغال والقيام بمناوشات ضدهم ، وفي سنة 1622 حدث الاشتباك المسلح الحاسم في هرمز ، حيث كانت هرمز هدفاً للتجار الإنكليز ، لأنها كانت سوقاً تجارية زاخرة بالمال والثروة ، وكانت البضائع تتوارد عليها من الصين والجزائر والهند الشرقية وسيام والهند ، وتستبدل تلك البضائع بالحرير والخيول ولألى البحرين ، وأسفرت معركة هرمز عن اندحار البرتغاليين على الرغم من دفاعهم الشديد ، وهرب من نجا من حاميتهم نحو الجنوب ، واستولى الإنكليز على الجزيرة في نشوة الظفر ، وانتهت بذلك ملحمة من الملاحم الشهيرة في تاريخ الاستعمار.

لقد كان سقوط هرمز ضربة قاضية للنفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، لكنه لم يضع حداً نهائياً له ، وتعد سنة 1622 بداية العلاقات السياسية لإنكلترا مع الخليج العربي ، عندما أخذت شركة الهند الشرقية على عاتقها تخصيص سفينتين حربيين بصورة مستمرة لهم في بندر عباس ، الذي بني في محل القرية الصغيرة جمبيرون (بندر عباس) على الساحل الشرقي ، حيث أنشأوا وكالة للحرير وحصل تجارهم على أذن من الشاه بشراء الحرير ونقله جنوباً إلى أصفهان دون دفع رسوم كمركية على ذلك.

وتبع ذلك توطيد العلاقات الإنكليزية الفارسية ، ولم تبتد شركة الهند الشرقية الإنكليزية أي معارضة للتغلغل الفارسي في الخليج العرب جنوباً وغرباً ، ويعني ذلك إن السياسة الإنكليزية هي التي مكنت الفرس تأكيد أطماعهم على سواحل الخليج العربي خلفاً للسيطرة البرتغالية ، ولعل هذا الموقف يرجع إلى حرص الإنكليز لتحقيق فوائد اقتصادية وبالفعل فإن الصداقة الإنكليزية الفارسية ساعدت الإنكليز إلى حد كبير إلى ممارسة احتكارات اقتصادية في فارس ، وخاصة في مقاطعاتها الجنوبية ، وساعدت أيضاً على القضاء على منافسة الهولنديين.

وصل الإنكليز إلى البصرة لأول مرة سنة 1635 ولن تلبث البصرة أن أصبحت من أهم مراكز التعامل لشركة الهند الشرقية الإنكليزية ، فقد حصلت الشركة في سنة 1639 على موافقة الوالي العثماني بتأسيس مركز تجاري لها في البصرة وبالفعل أنشأ أول مركز تجاري إنكليزي في عام 1643 وأدركا من الجهات الإنكليزية لأهمية البصرة نقلت إليها في سنة 1763 مقر شركتها في بندر عباس ورفعت درجته إلى وكالة ، وفي شهر آب 1764 استحصلت على موافقة السلطات العثمانية في

الأستاتة على اعتبار وكيل شركة الهند الشرقية في البصرة بصفة قنصل إنكليزي فيها ، ولجأت الشركة إلى أسلوب الإغراء المادي لكسب الولاء للعثمانيين ، فقدمت الهدايا اليهم في البصرة وبغداد وكانت صلتها بوالى بغداد تتم بالاتصال المباشر أو تكليف وكيل خاص إذ لم يكن هناك مقيم ثابت.

حصل تطور خطير في وضع الشركة الإنكليزية في أواخر القرن السابع عشر غير من طابعها التجاري ، فبعد النجاحات التي حققتها الشركة في الشرق ، أصدر جारلس الثاني مرسوماً ملكياً في سنة 1661 فوض الشركة بموجبه (إعلان الحرب أو السلم مع أي أمير غير مسيحي وأن تعقدت المعاهدات باسم التاج (وسلمت الحكومة الإنكليزية جزيرة بومباي إلى الشركة في سنة 1668 التي حصلت عليها بوصفها جزءاً من صفقة زواج جारلس الثاني من ابنة ملك البرتغال، الأمر الذي أدى بالشركة إلى تبني موقف سياسي ، أخذ يطغى بصورة متزايدة على الطابع التجاري لنشاط الشركة السابق).

أصبح وضع الإنكليز في الخليج العربي على وجه الإجمال قوياً عدا المنافسة التي أخذ يبديها الفرنسيون خلال الفترة (1740-1783) وحقق الإنكليز نصراً مهماً بعقدتهم اتفاقاً مع سعدون آل نصر ، حاكم بوشهر في (نيسان 1763) يتضمن:

1- إعفاء البضائع الإنكليزية المصدرة أو المستوردة من الرسوم الكمركية.
2- فتح وكالة لشركة الهند الشرقية الإنكليزية ، وعدم السماح لأي شركة أوربية إقامة وكالة في بوشهر طالما بقيت الوكالة الإنكليزية.

3- السماح للوكالة الإنكليزية بإقامة حرس خاص لحمايتها.

وبعد توقيع الاتفاق أصبحت أهم مركز للنفوذ الإنكليزي في منطقة الخليج العربي واتخذت بعد ذلك موقفاً للمقيم العام الإنكليزي الذي أدار السياسة البريطانية حتى انتقاله إلى البحرين عام 1946.

وبعد النجاحات التي حققتها الإنكليز أرسلوا بعثة من موباي سنة 1772 للقيام بمسح الخليج العربي ، وبعد ذلك بثلاث عشرة سنة أخذ المهمة على عاتقه أحد ضباط بحرية الهند الإنكليزية وهو الرئيس ماكليور ، وعلى يده مسح الخليج لأول مرة مسحاً في الحقيقة مهماً ، ولهذا يمكن القول أنه في أواخر القرن الثامن عشر ، أصبح للإنكليز الأرجحية في حوض الخليج العربي تجارياً وسياسياً.

رابعا: الغزو الفرنسي للخليج العربي:

بدأت أولى المحاولات الفرنسية للتجار مع الشرق عام 1601 حين قام بعض المغامرين الفرنسيين بقيادة فرانسوا بيرارد دي لافال Deleval من ميناء سانت مالو St Malo إلى الشرق عبر طريق رأس الرجاء الصالح ، وانتهت تلك الرحلة بارتطام السفينة الفرنسية بصخور ناتئة بالقرب من جزر المالديف ، عند سواحل الهند الجنوبية ، وفي عام 1604 تأسست شركة الهند الشرقية ، ولكنها كانت مؤسسة هزيلة ما أن بدأت حتى قعدت عن العمل ، وكانت الشركة أضعف من أن تفتح لفرنسا سياسة فعالة في بلاد الشرق.

تجدد النشاط الفرنسي في عهد الكاردينال ريشيليو سنة 1626 عندما بعث رسولاً إلى فارس يدعى لويس ديشي Louis Des Chayes لكنه لم يصل إلى أبعد من القسطنطينية ، وقضى على المشروع في المهد ، وفي عام 1628 وصل راهبان فرنسيان إلى بلاد فارس ولقيا الترحيب من شاه فارس ، وأعيد تأسيس شركة الهند الشرقية الفرنسية من جديد سنة 1642 ولم تحقق نجاحاً يذكر ، وحاول وزير المالية الفرنسي كولبير Colbert تنشيط الجهود لفرنسية ، فأرسل بعثة إلى فارس سنة 1664 استطاعت أن تحصل من الشاه على إعفاء للتجار الفرنسيين من رسوم الكمارك والمكوس ولمدة ثلاث سنوات ، وحصلت على تسهيلات مماثلة لما كان قد حصل عليه التجار الإنكليز والهولنديين من قبل.

وبموجب تلك الامتيازات أسس الفرنسيون وكالتين إحداهما في بندر عباس والأخرى في أصفهان ، ومع ذلك بقيت التجارة بين فرنسا على أضعف ما يكون حتى نهاية القرن السابع عشر.

وقد وجهت فرنسا اهتمامها لمسقط والبصرة منذ وقت مبكر ، ففي سنة 1667 قدمت فارس مقترحات لفرنسا من أجل احتلال مسقط ، وهو أمر كان يطمح إليه الفرنسيون بشدة وأوضحت تلك المقترحات الفوائد التي تعود على فرنسا نتيجة لاحتلالها مسقط والسيطرة على قلاعها ، لكن تحقيق شيء من ذلك لم يتم ، وحاولت فرنسا بدلاً من ذلك الحصول في سنة 1685 على إذن من سلطان عمان لتأسيس وكالة في مسقط لكنه رفض ذلك ، إما البصرة فترجع أقدم صلة لفرنسا معها إلى سنة 1679 عندما أصبح رئيس الكرملية في البصرة ، وهو رجل إيطالي ، قنصلاً فرنسياً في هذه المدينة وكانت دار الإقامة الفرنسية التي أسست في سنة 1755 في البصرة قد أصبحت مؤسسة دائمية ، وعين لها قنصل فرنسي بعد ذلك بعشرين عاماً ، ويمكن القول إجمالاً إن فرنسا لم تحض في الخليج العربي حتى نهاية القرن السابع عشر بأكثر من ممارسة تجارية بسيطة ، وإن دورها السياسي كان محدوداً جداً في أحداث الخليج ، وكانت الصعوبة التي واجهت الفرنسيين هي المقاومة النشطة للإنكليز والهولنديين.

وفي مطلع القرن الثامن عشر عادت فرنسا إلى تنشيط فعاليتها الشرقية ، فتمكنت من تقوية مركزها في الهند ، وتعزيز مركزها التجاري في بوند شيري ، وعادت إلى تعزيز علاقاتها مع الفرس ، فقد جرت في نهاية عهد لويس الرابع عشر اتصالات مباشرة بين فارس وفرنسا ، وأرسل الشاه أحد مبعوثيه إلى باريس سنة 1708 ، وكان الهدف من وراء ذلك التعاون بين البلدين ضد قوة عمان العربية النامية ، وتوصل الطرفان في أيلول 1708 إلى عقد معاهدة تألفت من (31) مادة تضمنت تسهيلات واسعة للتجار الفرنسيين ، منها إعفاؤهم من الضرائب لمدة خمس سنوات.

ونتيجة لتزايد نشاط عرب عُمان البحري في عهد سلطان بن سيف بن ثاني (1711-1718) ولفشل الشاه في الحصول على المساعدة البحرية من الإنكليز والهولنديين ، قرر الالتجاء إلى فرنسا ، وعقد معاهدة جديدة معها جرى التصديق عنها في مايس 1722 ، وتضمنت حلفاً ضد العرب العمانيين ، مقابل إعفاء الفرنسيين من دفع رسوم الاستيراد والتصدير.

توقف النشاط الفرنسي مع الساحل الشرقي للخليج العربي ، نتيجة الفوضى والاضطراب الذي ساد المنطقة بعد سقوط الصفويين وتساعد نشاط القوى العربية في تلك المنطقة ، فقام الفرنسيون بإغلاق مركزهم التجاري في بندر عباس لكنهم أعادوا فتحه مرة أخرى سنة 1740 في زمن نادر الشاه وأغلق بعد ثلاث سنوات.

واشتدت المنافسة خلال تلك الفترة بين الفرنسيين والإنكليز ، وتعرض الإنكليز إلى ضربة قوية في أواخر سنة 1759 على أيدي الفرنسيين ، حينما دمر مركزهم في بندر عباس ، وتزايد النشاط الفرنسي خلال الفترة التي أعقبت حرب السنوات السبع (1756-1763) وقاموا بالفعل بإرسال مندوب إلى كريم خان الزند ، الحاكم الفارسي ، سنة 1766 للاتفاق معه من أجل

احتلال جزيرة خرج العربية ، وقبل قيام الثورة الفرنسية بعام واحد ، قررت الحكومة الفرنسية ، ضرورة إنشاء قنصلية في مسقط ، وذلك لأهمية الميناء القسوى ولاتخاذ مسقط محطة لمراقبة النشاطات الإنكليزية في الهند ، ومصدر تموين في حالة تجدد الحرب مع إنكلترا ، لكن قيام الثورة في سنة 1789 أعاق تنفيذ ذلك الأمر ، بل وأدى إلى إهماله.

وبعد الثورة الفرنسية حدث انعطاف في النشاط الفرنسي ، وبخاصة حينما نشبت الحرب الفرنسية - الإنكليزية في سنة 1793 ، فتزايدت رغبة فرنسا في توسيع مناطق نفوذها ، ووجهت إلى الخليج العربي اهتماماً خاصاً ، حتى أخذت هجمات الفرنسيين تزداد شدة على السفن الإنكليزية في أرجاء المحيط الهندي ، وكان من تعاضم غنائمهم إنها غمرت أسواق عُمان وظهر البعض منها للبيع ثانية في كلكتا ، محل تصديرها الأول ، وتعد البعثة الفرنسية الشهيرة للعالمين الطبيعيين أوليفيه OLLIVIER وبورجير BURGUIERS إلى الدولة العثمانية ومصر وفارس ، في خلال السنوات الأولى من عمر الجمهورية ، فاتحة لحقبة من النشاط الفرنسي الجاد في منطقة الخليج العربي على الرغم من أن البعثة لم تسفر عن نتيجة تذكر من الناحية السياسية غير إن المبعوثين انتهزوا هذه الفرصة لتقديم اقتراحاتهما في المسائل التجارية والعسكرية ، فقد نصح أوليفيه بعدم اتخاذ أي خطوة لإقامة حامية فرنسية في جزيرة خرج ، مشيراً إلى أن مثل هذه الحامية لا تفيد شيئاً لعزلتها ، وإنما تصبح ضرورية فقط ، إذا نفذ مشروع غزو الهند.

وبحملة نابليون على مصر ، التي نزلت في الإسكندرية في الأول من تموز 1798 دخل التنافس الإنكليزي الفرنسي في المحيط الهندي والخليج العربي طوراً جديداً حيث دأبت فرنسا على ضرب إنكلترا في الهند وجهت إنكلترا لتثبيت أرجحيتها في المنطقة ضد النفوذ الفرنسي حتى لا تضار مصالحها ونهبت الشركة الإنكليزية في أواخر سنة 1798 إلى احتمال ظهور سفن فرنسية على سواحل الخليج العربي ، طلبت من الشاهر الفارسي أن يقف معها ضد الفرنسيين بحجة أنهم ضد النظام الملكي وضد الأديان ، ويبدو إن هذه الحجة قد صادفت قبولاً لدى الشاه الذي أعلن عن استعداده لمساعدة الإنكليز.

أما نابليون بونابرت فقد حرص على كسب بعض الحكام في المنطقة ، منهم سلطان بن أحمد سلطان عُمان الذي أرسل له رسالة مؤرخة في (25 كانون الثاني 1799) جاء فيها:

(أكتب أليكم هذا الكتاب لأبلغكم مالا شك في أنكم قد علمتموه فعلاً ، وهو وصول الجيش الفرنسي إلى مصر ، ولما كنتم دائماً أصدقاء لنا ، فعليكم أن تفتنوا برغيتي في حماية جميع سفن دولتكم - وعليكم أن تقوموا بإرسالها إلى السويس حيث تجد حماية لتجارتها - بونابرت.)

لم تصل رسالة بونابرت إلى سلطان عُمان لأن الإنكليز اعترضوا سبيلها وضعف النشاط الفرنسي في الخليج العربي مؤقتاً حين انتهت حملة بونابرت على مصر إلى فشل ذريع ، ولم تعد فرنسا قوة تخشاها حكومة الهند أو تخاف خطرها في الخليج العربي.

الفصل الثاني

المقاومة العربية للغزو الأوربي والتطورات الداخلية في الإمارات العربية

يعد القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر عصر الاندفاع والحيوية للقوى العربية في الخليج العربي ، ففي كل جزء من أجزائه ظهرت قوة عربية متميزة ، فظهر أولاً وقبل كل شيء اليعاربة في عمان الذين خاضوا صراعاً عنيفاً مع البرتغاليين وتمكنوا من طردهم نهائياً من الخليج العربي ثم أعقب ذلك نشاط قبائل عربية أخرى منهم الحولة على جاتبي الخليج العربي الشرقي والغربي ، والحولة اسم عام يطلق على القبائل العربية القاطنة في المنطقة الممتدة بين بندر عباس ورأس بردستان -بالقرب من بوشهر- ومهنتها الرئيسية الملاحة والصيد ويمتازون بالشجاعة والشهامة وكان بإمكانهم -كما يقول نيبور- السيطرة على جميع منطقة الخليج العربي لو كانوا متحدين غير إن انقسامهم إلى إمارات مستقلة حال دون ذلك ، وقد استطاع عرب بندر ريق من طرد الهولنديين وإخراجهم نهائياً من الخليج العربي ، وقد شهد نيبور بنفسه مدى النفوذ الذي وصل إليه عرب الخليج وسيادتهم على سواحلهم جميعاً مما دفع به إلى التأكيد بأن العرب هم الذين يمتلكون سواحلهم ، بما في ذلك سواحل الشرقية ، وإن ملوك فارس لم يتمكنوا من منازعة العرب هذه السيادة ، وأنهم متحملين على مضض بقاء السواحل الشرقية ملكاً للعرب.

وظهرت قوى عربية ذات بأس وشجاعة نادرة ، لعبت دوراً مهماً في جنوب الخليج العربي وشماله ، هي قوة القواسم وكعب الذين تحدى الإنكليز والفرس والعثمانيين معاً وتمكنوا من إنشاء كيانات عربية سيطرت على الخليج العربي وجزره كلها تقريباً وظهر العتوب في زيارة (قطر) والكويت والبحرين ، والعتوب هم اتحاد قبلي أقرب منهم إلى قبيلة واحدة وربما يعود أغلب العتوب إلى قبيلة عنزة في الأصل، وقد سجل أول ظهور للعتوب على سواحل الخليج العربي منذ 1716.

ويمكن القول أن الفعاليات العربية في الخليج لم تقتصر على الجوانب العسكرية والحربية وإنما شملت نواحي أخرى مهمة هي النواحي التجارية ، ويكفي أن نقول أن عرب عمان في عهد أبو سعيد اتجهوا رئيسياً نحو التجارة ، بحيث وقعت التجارة بين الهند والخليج العربي بيد عرب عمان ، وبلغت قوة القبائل العربية مبلغاً كبيراً استطاعت معه الوقوف بوجه الإنكليز في القرن الثامن عشر عندما حاولوا التوسع في الخليج العربي ، وفي وقت كان فيه الإنكليز قد حققوا سيطرة كاملة

في الهند.

والخلاصة أن النمو القوي العربية في القرنين السابع والثامن عشر واضح وجلي ، ولأسف نقول أن النتائج لذلك النمو كانت محدودة ، فطى الرغم من استطاعة القبائل العربية المحافظة على استقلالها لكن طاقاتها كانت مبعثرة ، وكان ينقصها الإدراك السليم لمصالحها القومية المشتركة ولعل الظروف التي كانت تمر بها تلك المرحلة ، فضلاً عن المصالح الأسرية المتضاربة عوامل في ذلك ، ومن هذه القوى العربية التي أدت الدور الكبير في تلك الفترة هي الآتية:

أولاً: البعارة في عمان 1624-1749:

ساهمت الروابط الدينية دورها في قيام النظام السياسي في عُمان وارتبط قيام أسرة البعارة بإحياء الإمامة ، وتعد قبيلة البعارة من أقدم القبائل وأقواها في عُمان ، وقد هاجرت أصلاً من اليمن ، ويدل استقرارها في الرستاق على أنها من القبائل البارزة ، وكانوا مثل غيرهم يتمتعون باستقلال في إدارة شؤونهم الذاتية.

كان الوضع الداخلي في عُمان في مفتح القرن السابع عشر، يسوده الانقسام والخلافات والمشاحنات ، وبخاصة في منطقة الرستاق ، وقد زاد من خطورة الوضع في عُمان ازدياد التواجد البرتغالي على الأراضي العُمانية ، ذلك بعد طرد البرتغاليين من هرمز في سنة 1622 الذين عوضوا خسارتهم لهرمز بزيادة فعاليتهم التجارية والعسكرية في أماكن أخرى من الخليج العربي وبخاصة مسقط ، حيث شيدوا حاميات بالغة المناعة لتكون مركزاً لنشاطاتهم في الخليج سواء من حيث التجارة أو التعبئة البشرية.

وإزاء تلك الأوضاع اجتمع أهل الحل والعقد في الرستاق للتشاور في أمورهم وأوضاعهم السيئة ، واتفقوا على الحاجة الماسة إلى إمام عادل وشجاع ، يستطيع أن يفرض العدل ويحارب الباطل ويحمي البلاد من الأعداء ، فوقع الاختيار على ناصر بن مرشد بم بن مالك بن أبي العرب البعري ليكون إماماً في عام 1624 ، وقد عُرف عن الإمام المنتخب الاستقامة والنزاهة والتدين (فاظهر العدل ودمر الجهل) كما يقول الأزكوي، وقد نسبت إليه الكرامات الدينية والخوارق ، وهي أمور حفزت الناس على الالتفاف حوله، ووصف بأنه اتم بذكاء غير عادي وقوة نادرة لدرجة أنه يمكن أن يوضع كواحد من أشهر أمراء عُمان.

قادت أسرة البعارة عُمان إلى مركز محترم ومزدهر في الداخل والخارج، ووصف دولة البعارة بأنها (أقوى الدول البحرية التي عرفها الخليج العربي وشرق أفريقيا خلال القرن السابع عشر الميلادي) ، ويعد تولى الشيخ ناصر بن مرشد (1624-1649) الحكم في عُمان في مرحلة مهمة ليست في تاريخ عُمان فحسب بل في تاريخ الخليج العربي والمحيط الهندي ، فقد تمتعت عُمان في عهده بالرأف والمجد والقوة وبشكل لم يسبق له مثيل ، وقد بدأ الشيخ ناصر حكمه بتوحيد البلاد واستتباب الأمن وبناء الحصون والقلاع وتنظيم الجيش فاستطاع إخضاع القبائل التي رفضت الاعتراف بسيادته وتوحيدها تحت زعامته .

واختفت الصورة السابقة ، صورة الصراع بين القوى القبلية ، وظهرت الوحدة الوطنية العُمانية باجلى صورها في مقاومة الاستعمار البرتغالي.

وكانت سياسية الإمام ناصر بداية لصراع عربي برتغالي مرير وطويل استمر ما يقارب من قرن وانتهى بانتصار العرب وطرد البرتغاليين من الخليج العربي ، ففي سنة 1640 أرسل الإمام ناصر حملة إلى مسقط وصلت أسوار المدينة وهدمت عدداً كبيراً من الأبراج والمباني التي كان البرتغاليون يتحصنون فيها ، لكنها لم تستطع تحرير المدينة وهاجمت قوة عمانية أخرى جلفار (رأس الخيمة) وتمكنت من احتلال إحدى القلعتين في المنطقة وتحريرها وطرد الفرس والبرتغاليين منها ، وفي سنة 1634 أرسل حملة لتحرير صحار وخور فكان وتمكن من تحريرها ، وأجبر البرتغاليين على دفع الجزية السنوية ، والتسليم بحرية التجارة للعرب في المناطق التي كانوا يسيطرون عليها ، وقد شجع هذا الانتصار البعارة على الاستمرار في الإجهاد على البقية الباقية من الوجود البرتغالي فهاجموا صور وقريات ونجحوا في تحريرها من البرتغاليين.

ازداد النشاط العربي للمعادي للبرتغاليين ، وفي 16 آب 1648 أرسل الإمام ناصر حملة بقيادة سعيد بن خليفة لتحرير مسقط فحاصر الميناء حصاراً محكماً ، وأجبر البرتغاليين على طلب الصلح ، وفرض الإمام شروطه على البرتغاليين التي تضمنت:

- 1- تسليم القلاع البرتغالية في قرىات وصور للعُمانيين.
 - 2- يدفع العُمانيون أية ضرائب على بضائعهم في مسقط.
 - 3- يدفع البرتغاليون ضريبة كبيرة للعُمانيين.
 - 4- يمتنع البرتغاليون عن القيام بأعمال عدائية ضد البعارة.
 - 5- يقوم العُمانيون بهدم التحصينات التي أقاموها خلال الحصار ، ولا يحق للبرتغاليين بناء تحصينات أخرى على أنقاضها.
- وتمثل هذه الشروط ضربة قوية للبرتغاليين ، وتدميراً تجارياً وعسكرياً لهم ، وعدها ملك البرتغال إهانة شخصية له ، وسرعان ما نكت البرتغاليون الصلح ، وبادرت السلطات البرتغالية إلى عزل القائد البرتغالي المسؤول عن توقيعها ، وأرسل ملك البرتغال تعليمات إلى الخليج العربي أكد فيها بذل كل جهد من أجل الحفاظ على مسقط ، وأن ترابط السفن البرتغالية بالقرب منها ، ولا يسمح للعرب بالإقامة فيها ، وأن تعزز القلاع البرتغالية فيها ، فتجددت الحرب وحاصر العُمانيون المدينة مرة أخرى ، ولم تستمر مقاومة البرتغاليين طويلاً حيث نفذت ذخيرتهم وانتشر الذعر بينهم ، فاضطر حاكم المدينة إلى طلب الصلح بشروط مهينة.

تولى الإمامة في عمان سلطان بن سيف (1649-1668) أبن عم الإمام السابق وقائده العسكري ، الذي سبق أن أدى دوراً في المقاومة العربية ضد البرتغاليين ، فقد قام بقيادة عدة حملات أدت إلى طرد البرتغاليين من صور وقرىات وحصن الصير بعد معارك عنيفة ، ويدل انتخابه للإمامة على رغبة العُمانيين بمواصلته العمل العسكري لتحرير البلاد كلها ، فسارع سلطان في السنة ذاتها إلى محاصرة مسقط مرة أخرى وأعلن حرباً شاملة ضد السيطرة الأجنبية في مسقط وأشرف على العمليات العسكرية إلى أن حقق الله له النصر في فترة لا تزيد على ستة أشهر ، ففي أوائل سنة 1650 باغتت جماعة صغيرة من المهاجرين العُمانيين مسقط ودخلتها بهجوم ليلي وانتشرت في أسواقها وشوارعها ، فانسحب البرتغاليين من المدينة ، وقام العرب بتحريرها ولم يعد للبرتغاليين وجود في الخليج العربي سوى ميناء كنج الصغير على الساحل الشرقي الذي دمره العرب سنة 1695.

وانتعشت الأحوال الداخلية في عمان في عهد سلطان بن سيف وبخاصة ازدهار التجارة وانتشار الأمن والعدل ، ويقول مؤلف

تاريخ أهل عمان:

واعتمدت عمان في دولته وزهرت واستراحت الرعية في عصره وشكرت ورخصت الأسعار وصلحت الأسفار وربحت التجار وسدت الأثمار وكان متواضعاً للرعية ولم يكن محتجباً عنهم وكان يخرج في الطريق بغير عسكر ، ويجلس مع الناس ويحدثهم ويسلم على الكبير والصغير ، والحر والعبد ولم يزل قائماً مستمراً حتى مات.

توفي الإمام سلطان بن سيف حوالي سنة 1668 وخلفه ابنه بلعرب بن سلطان (1668-1681) الذي استمر في مقاومة الفرس والبرتغاليين فبعد مرور عامين من توليه أرسل حملة ضد البرتغاليين في ديو ، ويذكر ألكسندر هاملتون (حوالي عام 1670) جاء عرب مسقط في أسطول تجاري ونزلوا في الليل في غرب الجزيرة دون أن يكشفهم أحد .. وعند طلوع النهار فتحت بوابات المدينة ودخلوا إليها دون مقاومة) وكانت الحملة بقيادة سيف بن سلطان شقيق الإمام بلعرب ، وأراد البرتغاليون الرد على العرب باحتلال مسقط وأرسلوا أسطولاً في عام 1673 إلا أن الإمام بلعرب بن سلطان تمكن من القضاء على أغلب الأسطول البرتغالي ولكن نشاط القوى العثمانية قل بعد ذلك بسبب الحرب الأهلية التي نشبت بين الأخوين بلعرب وسيف التي أدت إلى انقسام العمانيين إلى قسمين وقد ظهر بأن سيف أكثر حيوية ونشاطاً فالتفت حوله معظم القبائل وسيطر أنصاره على معظم أجزاء عمان فاضطر بلعرب إلى الانتحار وبويع سيف بالإمامة ، وقد ارتضته القبائل كلها بلا تردد وكانت شعبية سيف في ذلك الوقت كبيرة حيث اكتسب الاحترام ونال إعجاب العرب لشخصيته القوية وصفاته كقائد.

كان هدف الإمام سيف هو مقاومة الأطماع الفارسية في الخليج العربي ومحاربة البرتغاليين في الخليج العربي والهند وأفريقيا ، فتمكن من تحرير البحرين من السيطرة الفارسية ، وهدد الفرس في بندر عباس الذين طلبوا مساعدة الإنكليز ضد العمانيين وقد اتخذ البرتغاليون قراراً بمساعدة الفرس ضد عرب عمان الأمر الذي دفع العرب إلى طرد البرتغاليين من آخر معقل لهم في الخليج العربي هو ميناء كنج الصغير في الساحل الشرقي وذلك في عام 1695 ، وبذلك أصبحت سيطرت العثمانيين على الخليج العربي وعلى جزره تامة تقريباً.

وحذر سيف الدول الأوروبية من مساعدة الفرس ضد العرب وبأن مصيرهم سيكون نفس مصير البرتغاليين ، وحقق ميناء مسقط ازدهاراً كبيراً وأصبح أحد أهم المواقع في الخليج العربي كمركز للتوزيع التجاري من جهة ومحطة للسفر والتزود بالماء وشراء الماشية من جهة أخرى.

استتجد أهالي شرق أفريقيا سنة 1698 بالإمام سيف لمساعدتهم في طرد البرتغاليين فأرسل حملة قوية لتحرير ممباسا ، وكان حصار ممباسا الذي استمر ثلاثة أشهر دليلاً قوياً على مدى قوة البحرية العثمانية ، فقد عانى البرتغاليون من نقص المنونة والسلاح رغم ما كانوا قد خزنوه فيها ولم تغد العديد من النجادات التي أرسلت إليهم وبعد تحرير ممباسا عين عليها ناصر بن عبد الله حاكماً وقام العمانيون بطرد البرتغاليين من بمبا وكلوة وباتا وزنجبار ، وتمكنوا من تحرير أغلب الساحل الشرقي لأفريقيا من البرتغاليين.

ووقف ضد تحالف أقيم بين الفرس والبرتغاليين هدفه القيام بعملية حربيو ضد العرب العمانيين عام 1719 ، وقد توفي سلطان بن يوسف في سنة 1719 وبموته انتهى عهد الهدوء والاستقرار والتوسع في عمان.

فقد حدثت فتنة وقامت حرب أهلية ، نتيجة لانتخاب ابنه سيف وهو صبي في الثانية عشر، إمام فعد ذلك بدعة ، وضعف مركز الإمامة نتيجة لظهور فرق دينية متنازعة وهي الغافرية والهنأوية ، التي ظلت في نزاع مستمر لمدة طويلة مهد السبيل إلى الغزو الخارجي وإنهاء حكم البعاريبة.

وخلال فترة الصراع الداخلي كان سيف بن سلطان قد بلغ مرحلة الرجولة وجرى تثبيته إماماً عن الاتحاد الهناوي بوصفه إجراءً معاكساً قام الغافرية بانتخاب إمام آخر لهم هو بلعرب بن حمير ، وقد أثبت سيف عجزه وعدم كفاءته وابتعد في تصرفاته الشخصية عن المبادئ الإياضية المتمتمة ووصف بأنه (ضعيف الإرادة خائر العزيمة ، سيء الخلق) ولهذا لم تمض عد سنوات حتى كان حكمه على حافة الانهيار ، وهذا ما دفعه إلى اللجوء إلى الحاكم الفارسي نادر شاه في طلب المساعدة ضد معارضيه وكان هذا الطلب خروجاً على التقاليد العربية في الاستعانة بالأجنبي الطامع في المنطقة.

يمثل نادر شاه نموذجاً للأطماع الفارسية في منطقة الخليج العربي والعراق ووصفه لادن بأنه (أخيث حكام إيران) وكان يتحين مثل هذه الفرصة ليزيد من رقعة إمبراطوريته في الخليج ، ولم يكد يستولى على السلطة السياسية في فارس حتى بدأ على الفور ببناء قوة عسكرية لتحقيق أطماعه التوسعية في كل من البحرين الشمالي والجنوبي أي بحر قزوين والخليج العربي، وأولى القوة البحرية اهتماماً خاصاً بعد ما عرف عن الفرس عجزهم البحري وفقدانهم الأسطول ، وقد ذكر السير برسي سايكس أحد المهتمين بتاريخ فارس ذلك بقوله (ليس هناك شيء يوشح لنا تأثير العوامل الطبيعية على ميول الناس وسلوكهم أحسن من النفور والكره الذين يظهرهما الفرس دائماً للبحر الذي تفصلهم عنه حواجز جبلية شاهقة، وليس أدل على جهلهم بالشؤون البحرية من تعيينهم محمود تقي خان قائداً للبحرية وهو شخص لم يشاهد أي سفينة في حياته، ولهذا فشل الضباط الفرس عن قيادة الأسطول الأمر الذي اضطر نادر شاه إلى إسناد قيادته إلى بعض الضباط العرب في أواخر أيامه.

لقي طلب سيف استجابة سريعة من نادر شاه الذي كان يتوق إلى فرصة تمكنه من مد نفوذه إلى الخليج العربي بالسيطرة على مسقط والموانئ العربية الأخرى على الساحل الغربي من الخليج وبالتالي تحقيق أطماعه التوسعية في المنطقة العربية فأرسل نادر شاه أسطوله في (نيسان 1737) الذي ضم أربع سفن كبيرة وعدداً من السفن الصغيرة بقيادة لطيف خان وسار لطيف خان مع سيف بن سلطان لمحاربة بلعرب بن حمير الإمام الثائر الذي خرج عليهم من نزوى فاستطاعا دحره واحتلال عدد من مدن عمان المهمة ، وقد نشب الخلاف بين الإمام سيف ولطيف خان حيث استغرت تصرفات القائد الفارسي وعدم ميله إلى معاملة الإمام بالاحترام اللائق (سيف) الذي أخذ يشعر بالريبة من نوايا الفرس في إرجاع المناطق التي احتلوا إليها وإن هدف الفرس هو السيطرة وليس المعاونة ، فأدى ذلك إلى انفراط عقد التحالف العسكري بينهما.

تجددت الثورة ضد سيف في سنة 1738 فعاد إلى طلب المساعدة من الفرس مرة ثانية فبادر نادر شاه بإرسال تقي خان لمعاونة لطيف خان وتمكن القائد من احتلال أجزاء من الساحل العماني ويصف مؤلف تاريخ أهل عمان أعمال الفرس غير الإنسانية عند احتلالهم بعض المدن العثمانية بقوله:

(قتلوا الرجال والنساء حتى قيل أن الأطفال يربطون في حبل ويجعلونهم في مياه الأنهار تحت القطار، ويصف أيضاً ما حل بأهل نزوى على أيدي الفرس بالقول: (عذبوهم بالجلد والقتل .. حتى قيل أن الذين فقدوا أربعة آلاف نفس وحملوا الأطفال

والنساء وفعلوا من أنواع القبيح ما لا يذكر) ، ويؤكد الازكوي أفعال الفرس البعيدة عن القيم والأخلاق ، ويذكر أنهم فعلوا أفعالاً قبيحة وأذاقهم أليم العذاب، وتقدما نحو مسقط التي بقيت قلاعها صامدة رغم طول مدة الحصار ، وبعد أن أدرك سيف أن الأمر قد أوشك أن يخرج من يديه فسارع إلى الاتفاق مع منافسه ويذكر الازكوي أن مشايخ بنو غافر رأوا أن (يستغفوا بلعرب عن الإمامة للقضاء على الفرقة والفتن في عمان وليجتمعوا جميعاً على عدوهم العجم، وبعد أن وفق بلعرب على سحب ادعاءاته بالإمامة طلب سيف من الفرس الانسحاب.

طلب سيف مساعدة الفرس للمرة الثالثة في سنة 1742 عندما ظهر منافس جديد له هو سلطان بن مرشد الذي انتخبه الغافرية لمنصب الإمامة فعقد الفرس معاهدة مع سيف نصت على قيام الفرس بمساعدته لاستعادة ملكه على أن يعترف (بالسيطرة الفارسية) على عمان لقاء ذلك.

فتمكن الفرس من احتلال بعض المناطق المهمة في عمان ومنها مسقط وظهر جلياً أن الفرس جاءوا ليقبوا فالتجأ سلطان بن مرشد للتعاون مع أحمد بن سعيد حاكم صحار لمقاومة الفرس فتحولت صحار إلى قاعدة للمقاومة العربية ضد الاحتلال الفارسي وقد وصف رودولف سعيد روت الوضع في صحار بقوله:

فقد تجمعت في صحار فنة صغيرة من المحاربين الأشداء بقيادة رجل بسيط المنبت كريمه ، هو أحمد بن سعيد الذي لم يكن في الواقع إلا عاملاً أميناً من عمال الحاكم ، وقد استطاعت صحار بقيادته أن تصمد أمام الفرس .. وأن تظل على صمودها هذا رغم الفشل الذي منيت به حملات سلطان بن مرشد لفك الحصار عنها.

وهكذا كان أحمد بن سعيد قائداً قوياً وصلباً اندفع بكل قوته لاستعادة استقلال البلاد وتحريرها من السيطرة الفارسية ، واسترجاع مكانتها الكبيرة وتحقيق وحدتها .

ثانياً: أبو سعيد :

أصبح أحمد بن سعيد بعد انتصاره في صحار ، سيد عمان وزعيمها واعترف له الجميع بالزعامة والقيادة وقد ساعدته الظروف في تحقيق مسعاه ، فقد استشهد سلطان بن مرشد أثناء محاولته فك الحصار عن صحار ، بعد أن نجح في اختراق صفوف الفرس والالتحاق بأحمد بن سعيد في صحار لكنه أصيب بجراح لم تمهله فلاقي حتفه بعد أيام من وصوله صحار ، وذلك في سنة 1743 ، وتوفي في الوقت نفسه الإمام المخلوع سيف بن سلطان الذي قيل بأنه مات محزوناً لأنه وجد نفسه مخدوعاً من الفرس، ولكن موت هذين الزعيمين لم يؤدي إلى إنهاء الانقسام الداخلي فقد تنافس اثنان من اليعاربة على الإمامة هما ، بلعرب بن حمير ومجيد بن سلطان ، أخ الإمام السابق سيف ، فوقع الاختيار على الأول وانتخب إماماً في العاصمة الرستاق.

ولم يحاول الإمام الجديد ، بلعرب بن حمير الاشتراك في الحرب ضد الفرس بسبب غيرته الشديدة من غريمه أحمد بن سعيد وخشيته من تزايد نفوذه ، ولهذا لم يقدم أي مساعدة أو تأييد لصحار في مقاومتها للفرس ، فشمّر أحمد بن سعيد عن ساعد العزم وتمكن من تحرير مسقط في سنة 1744 وطرد الفرس نهائياً بعد أن كبدهم خسائر فادحة قدرت بأكثر من ثلاثة آلاف قتيل ، ويذكر الازكوي بعد الانتصار في صحار ووفاة سلطان بن مرشد وسيف بن سلطان طلب أحمد بن سعيد من بلعرب بن سلطان أخ سيف أن يطلب من الفرس الانسحاب من مسقط وتوفير السفن لنقلهم إلى بلادهم فرفض بلعرب بن سلطان ذلك ، الأمر الذي دفع أحمد بن سعيد إلى مطالبة الفرس بالرحيل عن مسقط فرحل قسم منهم وبقي آخرون الأمر الذي دفع أحمد بن سعيد إلى محاربتهم وإخراجهم بالقوة وتحرير الساحل العماني منهم نهائياً بعد أن كان (مرادهم ملكها وخرابها وهلاك أهلها) ، فأصبحت عواطف الكثيرين معه ومن طباع العرب البارزة إعجابهم بالبطولة وتقدير الرجال الأبطال منهم ، فقد سارع أحمد بن سعيد إلى دعوة الرؤساء والقضاة وشيوخ القبائل لعقد اجتماع مهم في العاصمة الرستاق ، وطلب إليهم تعيين أحدهم إماماً ، فقام أحدهم وبإيعاز أحمد بن سعيد بالإمامة لأنه الذي عمل على تحرير عمان من الاحتلال الفارسي ، وهناك خلاف بين الباحثين في تحديد السنة التي بويغ فيها بالإمامة ، ولكن الراجح هو سنة 1745 على أكثر تقدير.

بدأت مرحلة جديدة من الصراع في عمان والحروب الأهلية نتيجة لوجود إمامين في آن واحد هما بلعرب بن حمير الذي أيدته القبائل الغافرية وأمدته بالعدة لاستعادة ما سموه (حقه المسروق في الإمامة) وأحمد بن سعيد الذي حظي بالتأييد الشعبي وتأييد القبائل الهناوية ، وقد مر الصراع بمرحلتين ، امتدت الأولى من سنة 1745 حتى أوائل سنة 1749 ، والثانية وهي الحاسمة كانت في أواخر سنة 1749 ، وكان التفوق حليف بلعرب الذي حصل على مساندة قبائل القواسم في (ساحل الشمال) التي كانت تتوق للحصول على استقلالها عن عمان ، في المرحلة الأولى حقق عدداً من الانتصارات على خصمه ، أما المرحلة الثانية وهي الحاسمة التي وقعت في أواخر سنة 1749 فقد دارت فيها الدوائر على بلعرب إذ اندحر في معركة فارك قرب الجبل الأخضر ، وأسفرت تلك المعركة عن مقتل بلعرب وانهيار المقاومة الغافرية وبذلك صفا الجو لأحمد بن سعيد الذي ظل في الحكم حتى وفاته في سنة 1783.

ويعد تولي أحمد بن سعيد السلطة في عمان في سنة 1749 نهاية لحكم اليعاربة وبداية لحكم سلالة أبو سعيد والتي تواصل حكمها بدون انقطاع حتى الوقت الحاضر ، وأل بو سعيد قبيلة من عرب الجنوب كانت قد هاجرت إلى عمان في القرون الأولى، وقد وصف أحمد بن سعيد بأنه (واسع الصدر كثير الكرم كثير التواضع لله ، لين الجانب للفقراء والمساكين ، مستمعاً لكلامهم) ، وقد شمّر أحمد بن سعيد عن ساعد العزم لتحقيق الوحدة الوطنية في بلاد تفصل بين أجزائها سلاسل من الجبال الشاهقة الموحشة وتسكنها قبائل متعددة اعتادت كل منها على الحفاظ على استقلالها وفرديتها وأوضاعها.

أثبت الإمام أحمد بن سعيد أنه ذو إرادة قوية مكنته من فرض الوحدة على عمان فقد أدرك أهمية القوة العسكرية في الداخل والخارج فاهتم بإنشاء قوة برية ونظم الجيش على الأسس العصرية فكان جيشاً ثابتاً منظماً ، أشرف بنفسه على تسليحه كما اهتم بما صار إليه من أساطيل اليعاربة ، وزاد عليها الكثير من السفن والأسلحة ، وقد استخدم الإمام أحمد كل الوسائل لتحقيق أهدافه فعمل على كسب ود اليعاربة بزواجه من ابنة الإمام السابق سيف بن سلطان وهي عادة كثيراً ما لجأ إليها الحكام لتقوية أواصر الصلة بين القبائل القوية ، ونظم الإدارة والجيش والبحرية ، فتولى خميس بن سالم أبو سعدي على عسكر مسقط ومطرح ، وحسن الصرهنج على القوة البحرية والشيخ محمد بن عامر قاضياً في مسقط ورزيق بن بخيت مشرفاً على الحسابات في الميناء ، وعين خلفان بن محمد بن عبد الله أبو سعدي مشرفاً مالياً عاماً في مسقط (لقبض العشور والخراج الجائز والصدقات وإنقاذ حكم قلمه (ما قرره في دفاتر المال) لقبض الدراهم من الوكلاء الذين أقعدهم الإمام أحمد على الفرضة الميناء.

امتاز حكم الإمام أحمد بالازدهار الاقتصادي ولكونه تاجراً ومالك سفن فقد أصبحت التجارة والقوة البحرية أسس السلطة الحاكمة في عمان ، وقد بلغت وارداته السنوية من رسوم التجارة أكثر من مليون روبية ، وتطورت علاقات عمان التجارية مع جنوب العراق واليمن وساحل مالابار في الهند وشرق أفريقيا ، بما في ذلك الحبشة وكان لتجار مسقط احتكار تجارة القهوة التي كانوا يجلبونها من الحبشة واليمن وازدهرت أيضاً التجارة الداخلية وخاصة تجارة المواشي والجلود والطور والأدوية .

وقد أشاد الرحالة الدنماركي الشهير نيبور الذي زار مسقط سنة 1765 بالازدهار الذي شهدته عمان في عهد الإمام أحمد وأشار إلى ثروة مسقط من الفواكه واللحوم والأسماك والى أهميتها التجارية الرئيسية كمركز بحري تمر عبره جميع البضائع القادمة من الخليج العربي وفارس في طريقها إلى حضرموت واليمن والحجاز والهند وبالعكس وقدم نيبور صورة مشرقة للإمام أحمد الذي أنقذ البلاد بشجاعة نادرة من براثن الاحتلال الفارسي وقاد حركة وطنية صامدة متماسكة ضد القوات الدخيلة على البلاد ثم دأب على إزالة كل أثر للفساد الذي خلفه الإمام السابق ، سيف بن سلطان آخر سلالة اليعاربة ، الذي أصاب الأمة بالنكبات الجسام نتيجة ضعفه وأطماعه وشهوته.

وقد حاول الإمام أحمد تقوية صلاته مع القبائل العربية القاطنة في الأحواز والساحل الشرقي للخليج العربي ، فدخل في حلف مع قبائل كعب عند نهر الدجيل وشط العرب وفي حلف آخر مع قبائل المعين القاطنة قرب بندر عباس وقد نجحت هذه المحاولات نجاحاً كبيراً وأضعفت من حكم الشاه كريم خان الزند كما أضعفت من محاولات الفرس في السيطرة على مناطق الخليج العربي والتوغل في عمان ، فرفض مطالبه كريم خان الزند بدفع الجزية والتي تتم عن عجرة فارسية مقبته ووقف بقوة وصلابة ضد أطماعه وحدث صراع عنيف مع الفرس أرسل فيه الإمام أحمد أسطوله لمهاجمة كريم خان الزند في عام 1770 ، وأوقع خسائر فادحة بالفرس في هجوم آخر في عام 1773.

وكان الإمام أحمد وهو المدرك للأطماع الفارسية في الخليج العربي قد تقدم بأسطوله في شهر آب 1775 ليشارك البصرة في قتالها ضد الفرس بعد أن استنجد أهل البصرة به سراً.

وضعت قواته 12 سفينة حربية حمولة كل منها (50) مدفعاً مع عدد من السفن الصغيرة وعشرة آلاف جندي لفك الحصار عن البصرة وتطهير منطقة شط العرب من الغزاة الفرس ، وهاجمت القوات العمانية المواقع الفارسية بعد أن حطمت السلسلة التي وضعها الفرس لعرقلة تقدمهم ودمروا العديد من السفن الفارسية.

وأخذ الإمام أحمد يميل في أواخر حكمه إلى تعيين أولاده حكماً على المراكز المهمة في عمان مسبقاً عليهم ألقاب (السادة والأمراء) ، الأمر الذي أدى إلى إضعاف دولته ، وقد شاهد أحمد بنفسه الآثار السلبية لهذه السياسة حيث اضطرت عدة مرات للتدخل لإحلال السلام بين أبنائه أحياناً والدفاع عن نفسه ضد تكتل عسكري خلقه أولاده ضده أحياناً أخرى ففي سنة 1781 قام ولده سيف بثورة واسعة النطاق وقد انضم أخوه سلطان إليه ضد أبيهما واختطفوا أخيها سعيد الذي كان مرشحاً للإمامة ، وقد انتهت الثورة بمصالحة عامة توسط فيها قضاة عمان وقد توفي الإمام أحمد ، كما كتب على قبره في الرستاق في (19 محرم عام 1198) الموافق (15 كانون الأول عام 1783).

انتخب أبنته سعيد بن أحمد (1783-1803) إماماً طبقاً لما هو معمول به ويقال بأنه لم ينتخب وورث اللقب دون مبايعة وحتى دون اعتراف له من أحد ، وكان شخصاً محدود القابلية ، وقد وصفه مايلز بأنه (رجلاً ضعيفاً لا خطر له) وصارت البلاد في حالة ضعف لأن إدارته لم تكن قوية ، لكن أين زريق يذكر خلاف ذلك فيصفه بأنه (شجاعاً شهيراً فصيح اللسان ناضماً للشعر.. أظهر العدل للرعية .. وهاهيه أهل عمان هيبه عظيمة)، فولى الأمور السياسية عنه أبنته حمد (1784-1792) ، الذي تعرض لمعارضة قوية من أعمامه سيف ولسطان.

امتاز حكم حمد بالازدهار الاقتصادي وأصبحت عمان أغنى منطقة في الخليج العربي والمحيط الهندي وبنى حمد أسطولاً تجارياً لنقل البضائع بين زنجبار ومسقط وقد وصف تقرير للمقيمية الإنكليزية في البصرة مؤرخ في (15 آب 1790) ازدهار عمان الاقتصادي بقوله:

(أن مسقط سوق لقسم كبير من التجار بين الخليج العربي والهند ، وتلك فائدة تدين بها لنشاط حكامها وعدالتهم وأن لها أسطولاً مرموقاً وتجارها يبنون لأنفسهم في نواح متعددة من بلاد الهند أنواعاً مختلفة من السفن ذات الأشرعة المربعة القادرة على الحمولة الضخمة وغدا ميناء مسقط مرسى تتراده الدول الأوروبية والتجارة منبع للثروة قلما ينضب لهذا جعلت مسقط ميناء بحرياً أكثر ثراء وازدهاراً من أي ميناء آخر واقع على الخليج.

قام حمد بنقل العاصمة من الرستاق إلى مسقط لأول مرة في تاريخ الإمامة العمانية وكان هدفه إبعاد العاصمة من تحكم القبائل العمانية القوية التي تلتف حول الإمام ، كما يمكن استعمال الأسطول للدفاع عنها ، وكان حمد بن سعيد يحيد وراثته الإمام في أبو سعيد ولا يؤمن بالانتخاب كما كان جارياً وطالما صرح بذلك أمام أتباعه إلا إن مبدأ الوراثة كان يلاقي مقاومة عنيفة من معظم الشعب العماني وخاصة الهناوية والغافرية الذين يؤمنون بانتخاب الإمام ، لكن حمد توفي في مسقط عام 1792 من جراء إصابته بالجذري.

بعد وفاة حمد ترك الأمر في عمان حول شخصين اثنين فقط هما سعيد ولسطان أبني الإمام أحمد ، وقد بقي الإمام سعيد مقيماً في العاصمة الدينية الرستاق والاحتفاظ بلقب الإمامة التي بدأت تفقد الكثير من سلطتها الروحية لصالح السلطة الزمنية ، وزاد من ضعف مركز سعيد انقطاعه في مركزه البعيد في حصن الرستاق الذي صار سجناً أكثر منه حصناً ، وقد استطاع أخاه سلطان بن أحمد (1792-1804) أن يستولي على السلطة السياسية ويذكر ولسن خطأ بأن سلطان قام بثورة ضد عمه السيد حمد الإمام الاسمي ، وبالنجاح الذي حققه من خلال تلك الثورة تمكن من السيطرة على مسقط وساحل الباطنه ثم أعلن نفسه حاكماً مستقلاً ولقب نفسه بالسيد سلطان ، وتخلّى عن لقب الإمامة مخرجاً السلطة السياسية في عمان من محتواها الديني ، وحكم هو ومن بعده كحكام علمانيين .

وكان سلطان بن أحمد شخصية شجاعة ومهابة ، وقد امتازت الفترة الأولى من حكمه (1792-1800) بالنشاطات العسكرية الواسعة التي مثلت أعلى درجات سلطة أبو سعيد وهيبتها ، أما الفترة الثانية (1800-1804) فقد شهدت جهوداً عظيمة من قبل سلطان لصد غارات القبائل السعودية والقواسم على عمان ، الأولى من الغرب والثانية من الشمال ، فقد أرسل سلطان في عام 1793 حملة استعادت ميناء جواهر القريب من بندر عباس وعين عليه حاكماً من قبله ، واستطاع الاستيلاء على جاهاور وقاد بنفسه حملة بحرية قوية في عام 1794 ضد قبائل المعين في جزيرتي قشم وهرمز وسيطر على جزيرة

هناج ، وهاجم البحرين عدة مرات وأرغم العتوب على دفع الضرائب له ، وقام باحتلالها سنة 1800 وعين ابنه (سالم) حاكماً عليها لكن حكمه لم يستمر طويلاً حيث استطاع القواسم إخراجها من البحرين.

قام سلطان بأداء فريضة الحج عام 1803 وقد لقي حتفه في العام التالي بعد رجوعه من حملة قادها في شمال الخليج العربي وذلك أثناء اشتباكه مع بعض المتمردين في لنجه الذين شهدوا شجاعته النادرة في الحرب ، وقد دفن بالقرب من بندر عباس وترك سلطان ولديه سالمًا البالغ من العمر خمسة عشر عاماً ، وسعيد البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً ، الأمر الذي أدى إلى اندلاع صراع عائلي جديد (1804-1806) كانت نهايته تولى سعيد السلطة في عمان.

امتاز سعيد بن سلطان (1806-1856) بشخصية قوية وإرادة صلبة وأفق واسع وإدراك سليم للأمر ، جعله بين الفريدين والأفذاذ في تاريخ شرق الجزيرة العربية وشرق أفريقيا.

أبى سعيد بن سلطان نشاطاً ملحوظاً في منطقة الخليج العربي ، فأرسل في شهر تموز عام 1826 سفنه لمحاصرة بوشهر ، ولكنه وبناء على نصيحة من المقيم الإنكليزي لم يهاجم المدينة ، وقد استطاع أن يأسر والي الجزيرة الفارسي وهو في طريقه في البحر إلى بلاده وظل في أسره عدة أشهر ، وقاد أسطوله في شهر تشرين الثاني من عام 1828 إلى البحرين بهدف الاستيلاء عليها ، وقد أخفق الهجوم وأصيب سعيد نفسه في جرح أثناء المعركة ، واضطر في العودة إلى مسقط ، وفي عام 1839 أرسل سعيد جيشاً إلى ظفار استطاع الاستيلاء عليها وضمها إلى أملاك سلطنته.

أدى تطور العلاقة بين بريطانيا وعمان ، والجهود التي بذلها العقيد هنيل المقيم البريطاني في الخليج العربي لإقناع حكومته بإرضاء السيد سعيد إلى عقد معاهدة عام 1839 تضمنت حرية التجارة والإقامة ونقل البضائع والدخول ، وعدم فرض ضرائب تزيد على 50% على البضائع والغلات البريطانية المستوردة على سفن بريطانيا ومساعدة السفن عند تعرضها لمأزق خطر ، وفي عام 1840 تم الاتفاق على تعيين الكابتن انكتر همرتون HAMERTON ليكون ممثلاً لشركة الهند ولوزارة الخارجية البريطانية وبعد ست سنين وقعت معاهدة أخرى في عام 1845 تعهد فيها سعيد بأن يمنع كل تصدير للرفيق من أملاكه الأفريقية ، أو استيراد الرفيق نوي الأصل الأفريقي إلى ممتلكاته الآسيوية ، وبلغت علاقات السيد سعيد مع بريطانيا درجة من القوة بحيث تنازل في عام 1854 عن جزائر كوريا موربا في البحر العربي هدية إلى الملكة فكتوريا في عيد ميلادها .

توفي السيد سعيد عام 1856 وهو على مقربة من جزيرة سيشل في المحيط الهندي وكان في طريقه إلى زنجبار ، وقد بلغت ممتلكات دولة أبو سعيد أقصى توسع لها في السنوات الأخيرة من حكمه ، فقد كانت تمتد في إقليم عمان من رأس مسندم إلى صحار ، وأجزاء من السواحل الشرقية للخليج العربي ، وامتد نفوذها إلى البحرين وعدن وغيرها ، أما ممتلكاتها الأفريقية فشملت الساحل الشرقي كله تقريباً ، وبعض المناطق الداخلية.

بعد وفاة السيد سعيد تنازع ولده ثويني وماجد الحكم من بعده ، وقد اتفق الطرفان بواسطة اللورد كاننج CANNING ، الحاكم العام للهند ، في عام 1861 على تقسيم السلطة فطبقاً للتحكيم تم إقرار السيد ماجد حاكماً على زنجبار والممتلكات الأفريقية الأخرى ، على أن يدفع لأخيه ثويني (40) ألف روبية سنوياً ، وهكذا أصبحت العلاقة بين زنجبار ومسقط علاقة مالية فقط ، ولا شك أن بريطانيا كانت تهدف من وراء تقسيم دولة أبو سعيد إلى السيطرة على إقليمي الدولة ، وقد تمكنت في النهاية من أن تتحكم في كل من سلطان مسقط لكون ممتلكاته واقعة في منطقة نفوذها في الخليج العربي ، وسلطان زنجبار لما لها من فضل عليه في الاحتفاظ له لملكه من أطماع المنافسين له.

وفي مسقط فبعد وفاة ثويني ظهر الصراع بين سلاطين وأئمة عمان ، فقد تنازع الحكم سالم بن ثويني وعزان بن قيس زعيم العمانيين الذي استولى على مسقط عام 1869 وأرغم سالم على الفرار ، ولكن الحكومة البريطانية لم تعترف بعزان بل اتخذت خطوات لتقويض سلطته وإنهاء عهده فمهدت الطريق لثركي بن سعيد لتسلم السلطة في عام 1872 وبعد وفاته في عام 1888 خلفه ابنه فيصل الذي نال اعتراف بريطانيا على الفور ، وفي عهده أعلنت بريطانيا حمايتها على مسقط ، وتوفي فيصل في عام 1913 وخلفه ابنه تيمور (1913-1932) ثم ابنه سعيد (1932-1971) ، وبعده قابوس ، وهكذا تواصل حكم أبو سعيد في عمان.

وفي زنجبار توفي ماجد عام 1870 وخلفه أخوه برغش الذي بدأت في عهده حركة الاستعمار الأوربي والتبشير الاستعماري ، وبدأ التنافس للقضاء على الحكم العربي في شرق أفريقيا وقد تمكن الأوربيون من انتزاع الأملاك العربية الواحدة بعد الأخرى ولم يبق من الأملاك العربية عندما توفي برغش في عام 1881 غير زنجبار ومباسا ودار السلام وفي عهد خليفة بن سعيد فرضت بريطانيا حمايتها على زنجبار ، واستمر الحكم العربي تحت الحماية البريطانية حتى كانون الأول عام 1963 حيث أعلنت زنجبار مملكة مستقلة وعلى رأسها عبد الله بن خليفة بن حارب بن ثويني وبعد الاستقلال بخمسة أسابيع أطيح بالحكم العربي في أوائل عام 1964 وبذلك انتهى آخر معقل للعرب في شرق أفريقيا.

ثالثاً: القواسم :

أن أول زعيم بارز للقواسم ، تذكره المصادر ، هو رحمة بن مطر (1722-1760) وقد وصف بأنه أقوى زعيم للقبائل على ساحل الشمال وقد نجح في تركيز نفوذه ومد سلطته على شبه الجزيرة مسندم ، ساعدته في ذلك ظروف الاضطراب الداخلي والحرب الأهلية في عمان ، وحلال اندلاع الصراع بين أحمد بن سعيد وبلعرب بن حمير (1745-1749) وقف القواسم إلى جانب بلعرب ، وشاركوه في الهجوم على مسقط ، وبعد انفراد أحمد بن سعيد في حكم عمان في عام 1749 ، وكان أول تحد يواجهه هو التحدي القاسمي ، فقد حاول رحمة بن مطر الاندفاع نحو صحار ، وجرت معركة متعادلة بين الطرفين ، وبعد أن ثبت الإمام أحمد بن سعيد سلطته في عمان قرر إخضاع القواسم فجهز حملة في عامي 1758-1759 وقد حقق بعض الانتصارات إلا أن حدوث ثورة داخلية جعله يضطر إلى سحب قواته.

توفي رحمة بن مطر في عام 1760 وخلفه أخوه راشد بن مطر (1760-1777) الذي استمر في عهده العلاقة السلبية مع عمان ، فقد كان إمام عمان يطمح في إعادة سيطرته على القواسم وهم يريدون الحصول على اعتراف من الإمام بالاستقلال ، وتوسيع رقعة الأرض التي بين أيديهم ، ولهذا حدثت سلسلة من الحروب بين الطرفين ، ففي عام 1762 أرسل أحمد بن سعيد إمام عمان حملة مؤلفة من أربعة سفن كبيرة لحصار منطقة القواسم ، وأصابته الحملة بعض النجاح ، فقد استطاع

الأسطول العماني محاصرة موانئ القواسم الرئيسية فلم يسمح لأية سفينة بالخروج لصيد اللؤلؤ أو القيام برحلة تجارية ، وقد دفعت المعاناة القاسية تلك الموانئ ، عدا رأس الخيمة إلى الاعتراف بسلطة الإمام.

رد شيخ القواسم في عام 1763 بحملة بقيادة أبنة صقر الذي استطاع أن يهدد العاصمة العمانية الرستاق ، مما اضطر إمام عمان أن يستقبل سفارة من بعض شيوخ القواسم وتمخضت هذه البعثة عن قناعة الإمام باستقلال رأس الخيمة وتوابعها عن سلطته الخاصة في عام 1765 وبذلك أصبح نفوذ القواسم محسوماً في كل المنطقة الممتدة من خور فكان حتى رأس مسندم وإلى الشارقة وقد تعاون القواسم بعد ذلك مع العمانيين أحياناً لمقاومة الأطماع الفارسية التي تمثلت في تهديدات كريم خان الزند للساحل العربي بصورة عامة في عام 1772 ، وتعاون الشيخ راشد بن مطر مع إمام عمان مرة أخرى في عام 1775 ضد الفرس وشارك القواسم في مهاجمة ميناء بندر عباس وتدمير سفينتين فارسيتين ومخزن للذخيرة في لنجة.

سعى القواسم إلى تحرير الساحل الشرقي والجزر القريبة منه من الاحتلال الفارسي ففي خلال الفوضى التي أعقبت سقوط الدولة الصفوية عام 1722 قام الشيخ راشد بن مطر بالاستيلاء على باسيديو في جزيرة قشم (1726-1727) وجعل منها قاعدة تجارية كبرى ، كان لها أبلغ التأثير على عوائد ميناء بندر عباس والفوائد المتأتية منه ، وكان هذا في مقدمة العوامل التي دعت الإنكليز يحسبون لسيطرة القواسم على قشم وغيرها ألف حساب ، ذلك لأن إنكلترا كانت تحصل على نصف الإيرادات التي يوفرها ميناء بندر عباس ، وبع موت نادر شاه في عام 1747 وتدهور البحرية الفارسية ، ظهر القواسم على مسرح الأحداث بشكل بارز لتأكيد السيادة العربية على الأجزاء القريبة من الساحل الشرقي ، وقد حدث تحالف بين القواسم وملا على شاه الضابط العربي وقائد الأسطول الفارسي، ومن الجدير بالذكر أن نادر شاه اضطر إلى الاستعانة بعرب الخليج في أسطوله ، لأن عرب الخليج ملاحون ماهرون بفطرتهم ، وإن خبرتهم في البحر والسفن تضاهي خبرة أحسن الأمم في ذلك ، وكان هؤلاء الملاحون العرب يستغلون اضطراب الأمور في فارس للانتفاض ضد الفرس ، كما حدث في عام 1739 و 1740 ، وقد علق وكيل شركة الهند الشرقية _ الإنكليزية في بندر عباس على ذلك بقوله:

(فعلى هؤلاء العرب وحدهم يتوقف نجاح المشروع (مشروع نادر شاه لبناء الأسطول) أما الإيرانيون فأنهم كارهون للسفن ونافرون منها ، كما أنهم جاهلون بأمور البحر وهذه في الحقيقة كلها أمور تحتمها طبيعة بلادهم.)

حقق التحالف بين القواسم وملا على شاه مصلحة مشتركة للطرفين ، فقد قام ملا على شاه بطرد الفرس من بندر عباس وأصبح حاكماً عليها ، ودخل في محادثات مع بعض القبائل العربية هناك ، وأصبح لديه أسطول خاص به يضم أربع سفن كبيرة وأعداد من السفن الصغيرة والقوارب البحرية ، وزوج إحدى بناته عام 1751 للشيخ رحمة بن مطر القاسمي ، ويعلق الدكتور عبد الأمير محمد أمين على هذا الزواج بقوله: (كانت لهذه المصاهرة أهمية خاصة إذ كانت بداية لتحالف مديد بين قائد الأسطول الإيراني وهذه القبائل النشطة ، وقد أصبح بمقدور القواسم نتيجة لهذا التحالف الاستفادة من الأسطول .. واستخدامه ضد خصومهم ومنافسيهم في الخليج العربي ، وكان هذا سبباً مهماً لازدياد قوة هذه القبائل وعملاً ممهداً للدور الخطير الذي قامت به في الخليج العربي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

سعى الحليفان لتحقيق طموحاتهما بتحرير أجزاء مهمة من الساحل الشرقي، وتقوية مركزهما بين القبائل فاستطاعا الاستيلاء على قشم ولافت ولنجة ، كما عزز التحالف موقف ملا على إزاء تهديدات ناصر خان ، الحاكم الوراثة لإقليم لار الفارسي والذي كانت عائلته تدعي حق السيطرة على بندر عباس وكان آنذاك أقوى حاكم في الساحل الشرقي.

واستطاع ملا على شاه تحرير جزيرة هرمز وترميم قلعتها لتكون حصناً له في حالة هجوم ناصر خان على بندر عباس ، وقد عزز النصر الذي أحرزه الحليفان ضد جزيرة قشم ، موطن قبيلة بني معين ، في مايس عام 1755 ، مركزهما وجعلهما سيدين على منطقة من الخليج تضم بندر عباس وهرمز وقشم، فخلق ذلك من القواسم قوة خطيرة في المنطقة.

ويشير لوريمر حدوث تقارب وثيق بين العتوب والقواسم خلال الفترة بين (1718-1719) ذكر الملازم بروس في تقريره أن البحرين قد أصبحت السوق الرئيسية للقواسم وقاعدتهم التي يمونون فيها بالرز والتمور ، وأن عدداً من سكانها اعتادوا أن يبحروا إلى رأس الخيمة للاشتغال في سفن القواسم.

تنازل راشد بن مطر في عام 1777 عن الزعامة لمصلحة أبنة وقائده صقر بن راشد (1777-1803) بسبب الشيخوخة ، وعرف بأنه مخطط النهضة القاسمية الحديثة.

تحالف مع بني معين في نفس السنة التي تولى فيها الحكم ، وعزز التحالف بالمصاهرة بزواجه من ابنة شيخ تلك القبيلة ، فامتدت سيطرة القواسم في عهده من رأس الخيمة حتى دبي ، وشملت الشارقة من جزيرة الحميرة وأم القيوين ، وفي عهده بدأ الخطر السعودي على المنطقة.

مرت العلاقات القاسمية – السعودية بمرحلتين ، تمثلت المرحلة الأولى منها بمقاومة القواسم محاولات آل سعود لإخضاعهم ، وتمتد من حوالي سنة 1797 إلى سنة 1800 ، وتبدأ المرحلة الثانية من سنة 1800 إلى سنة 1818 حيث خضع القواسم لهم .

الفصل الثالث

أولاً: المحاولات العثمانية للسيطرة على الخليج العربي :

ازداد الاهتمام العثماني بمنطقة الخليج العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واتخذ شكلاً جديداً منذ عام 1870 ، وقد مهدت لذلك عوامل مختلفة تضافرت جميعاً على دفع الثمانيين نحو الخليج العربي منها فتح قناة السويس ، مما هيا للأسطول العثماني فتح خط ملاحى بين البصرة والعاصمة العثمانية ، ومنها تولى مدحت باشا ولاية بغداد (1869-1872) وهو من دعاة إصلاح الدولة العثمانية وإعادة هيبته بتأكيد سيطرتها الفعلية على جميع المناطق الخاضعة لها أسماً. وكان مدحت من ألد أعداء السياسة البريطانية في العراق والخليج العربي ، ويؤمن بأن الوسيلة الناجعة لتعويض الخسائر الإقليمية للعثمانيين في البلقان هو تأكيد السلطة العثمانية في الولايات العربية التابعة لها وبخاصة في الخليج العربي والبحر الأحمر.

ولتحقيق أهداف هذه السياسة اتبع مدحت سياسة تهدف إلى إنشاء أسطول عثماني قوي في الخليج العربي ، وإنشاء خط بواخر بين البصرة والسويس والاسنانة ، وعمل مدحت على تقوية قبضة الحكومة العثمانية على الإمارات العربية في الخليج العربي التي لم ترتبط بعد بالإنكليز ليحميها من الوقوع تحت سيطرتهم ، وبدأ نشاطه مع الكويت فقام بإنشاء مركز لجباية الضرائب كجزء من خطته لإدخال نظم الإدارة العثمانية فيها ، ثم أسند منصب القانمقامية إلى صباح الثاني ، معقياً إياه من الرسوم والضرائب الكمركية والضرائب الأميرية ، وهدفه من ذلك منع الشيخ من استخدام الاعلام الأجنبية ، ولعل هذه السياسة تجاه الكويت توضح أهمية الكويت لتنفيذ مشروعات مدحت في الخليج ، وقد رحب شيخ الكويت ، من جانبه بالتعاون مع العثمانيين لأنه يدرك خطر الإنكليز على الإسلام من ناحية ، ولأن الإعفاءات الضريبية وتجنب العثمانيين من التدخل في الشؤون الداخلية شجعا شيخ الكويت على التعاون من ناحية أخرى.

كان مدحت باشا يدرك خطورة النشاط البريطاني في الخليج العربي والتوجه نحو العراق لذلك حاول العمل على وقف التدخل البريطاني بجميع صورته فأعد له حملة كبيرة لإنقاذ أطراف الدولة من الهيمنة البريطانية ، ونجح مدحت في كتم أسراره العسكرية بدرجة فذة لم تألفها من قبل إدارات الدولة العثمانية ، وقد تحركت الحملة إلى نجد في (21 نيسان 1871) من بغداد ، رافقتها دعاية عثمانية لكسب ثقة أهل الاحساء ونجد وحثم على التعاون مع جيش السلطان ، وأصدر مدحت إعلاناً حدد فيه أهداف الحملة ، وكان الإعلان مليوناً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو إلى إطاعة أولى الأمر وتوحيد كلمة المسلمين ، وزعم الإعلان بأن الدولة العثمانية لم يشغلها عن الاهتمام بأمر نجد سوى مشاغلها الكبيرة ، وهي جادة لتأكيد سلطتها والقضاء على الفوضى والاضطراب.

وضعت الخطة العثمانية على أساس إرسال القوات النظامية بطريق الخليج العربي وأما قوات العشائر فتذهب بطريق البر ومعها معظم قوات المشاة النظامية لتلتقي بالقوات الأخرى في الاحساء ، وقد أصبحت القوة البحرية تضم الباخرتين العثمانيتين (البنان والإسكندرية) اللتين عبرتا قناة السويس وباب المنذب والخليج العربي ، ثم انضمت إليهما الباخرة بروسة وعليها (23) مدفعاً ، إلى جانب عدد من السفن الصغيرة المسلحة بالمدفعية ، مع بعض السفن الكويتية وقد سارت القوات البرية دون مقاومة تذكر حتى الاحساء وقد نزلت البحرية في رأس التنورة ، واستطاعت المدفعية العثمانية السيطرة بسرعة على الدمام والقطيف واحتلالها في حزيران 1871 ، فأصبحت الاحساء كلها تحت الاحتلال العثماني.

صاحب الانتصارات العثمانية دعاية واسعة بأن هدف العثمانيين هو تأكيد سيطرتهم على ساحل الاحساء والبحرين وقطر وعمان والبريمي وأبو ظبي ودبي والمناطق المجاورة لها وأكدت صحيفة الزوراء أن هذه المناطق داخلية ضمن حدود نجد التابعة للدولة العثمانية ، فاحتجت بريطانيا ، طالبت مدحت أن يتجنب الاشتباك مع الإمارات والعشائر المتعاهدة مع بريطانيا. اعترضت الدولة العثمانية على مقاومة بريطانيا لنشاطها الهادف لاستعادة سيطرتها على طول السواحل العربية في البحر الأحمر والبحر العربي والخليج العربي زاعمة أن لا سيطرة لأحد على تلك المناطق سوى السلطان العثماني ، وأكدت بريطانيا أن مسقط والبحرين وشيوخ السواحل العربي من رأس الخيمة إلى أبي ظبي يدفعون لأمير نجد ضرائب سنوية محددة ، وهذا يعنى الاعتراف بالسيطرة العثمانية على هذه الإمارات.

استقدمت بريطانيا على عجل عدة بوارج حربية إلى الخليج العربي للدفاع عن مصالحها ، إزاء هذا عدل مدحت عن التدخل المباشر في أمور البحرين ، أما قطر فقد أيد شيخها منذ البداية الحملة العثمانية ، وأعلن انضمامه إليها على رأس ثلاثمائة رجل ، ورفع فعلاً العلم العثماني على البدعة ، وحاول مدحت تحريض شيوخ الساحل المتعاهدين مع بريطانيا ، إلا أن شيوخ الإمارات المتعاهدة لم يلبوا نداء العثمانيين ، ولم يحاول مدحت مواصلة الضغط العسكري ، وذلك تحت ضغط رجال الأسطول العثماني من جهة ، وبسبب الضعف الذي كان يسري في القوات العثمانية في الاحساء من جهة أخرى ، ولأن السيطرة العثمانية في قطر نفسها كانت مزعزعة.

ويمكن القول أن جهود مدحت في مناطق الخليج العربي ، جاءت بعد فوات الأوان ، وبعد أن وطد الإنكليز نفوذهم سياسياً وعسكرياً واقتصادياً ، ومن ناحية ثانية كانت الدولة العثمانية في وضع يمنعها تماماً من أن تجازف في حرب خاسرة من أجل البحرين أو مشيخة من مشيخات الخليج العربي ، وقد ضاعف من تضاول القوة العثمانية عودت مدحت باشا إلى العراق ومن ثم مغادرته إلى الاسنانة في (22 مايس 1872) ، ولم يستطع الولاة بعد مدحت أن يتابعوا مجهوداته في الخليج العربي ، رغم أن سياسة السلطان عبد الحميد الثاني (1786-1909) كانت تتصف بالشك والمعارضة للسياسات البريطانية ، وبخاصة بعد الاحتلال البريطاني لمصر 1883 ، فحاول العثمانيون إنشاء حصن كبير عند الفاو في سنة 1883 ، ووزع الصدر الأعظم سنة 1884 تعميماً سرياً على المناطق التابعة للدولة العثمانية وفيه نقد شديد للسياسة الخارجية البريطانية. لقد اتسمت العلاقات العثمانية البريطانية ، خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، بانعدام الثقة والتشاحن وواجهت بريطانيا طعناً في مصالحها الاقتصادية والسياسية ، ولقد نشطت بالمقابل في استخدام شتى الأساليب لزيادة استغلالها وتطمين مصالحها وتوسيع توغّلها ولجأت إلى الدبلوماسية والتهديد ، وفي حين كان موظفو حكومة الهند يتصلون بوالى البصرة مباشرة لمتابعة قضايا الخليج وشركة لنج ، كان موظفو وزارة الخارجية البريطانية يتباحثون بهذه الأمور مع الباب العالي ، وينسقون الجهود في مسيرة الدبلوماسية البريطانية لاستعمار المنطقة ، وهو ما حصل فعلاً.

ثانياً: ألمانيا القيصرية

تطورت العلاقات بين ألمانيا والدولة العثمانية تطوراً حَسناً بعد سنة 1880 فقد طلب السلطان العثماني من بسمارك تجهيزه بضباط ألمان لتدريب الجيش العثماني ، ولكن بسمارك اعتذر عن قبول هذا الطلب لعوامل سياسية تتعلق بالدرجة الأولى بالعلاقات الألمانية الروسية ، ومع ذلك ظل بسمارك يعد صديقاً للدولة العثمانية وحليفاً لها في أية حرب تقع بينها وبين روسيا القيصرية ، وكان بسمارك يكن احتراماً عظيماً لشجاعة القوات التركية البرية ، وقد قام القائد الألماني (كولتز GOLTZ) بإقناع معامل الأسلحة الألمانية بتجهيز الدولة العثمانية بمدافع من طراز كروب لأجل تحصين الدردنيل ، وكذلك تجهيز البحرية العثمانية بعدد من قوارب الطوربيد وبنادق من طراز MAUSER لإعادة تسليح الجيش العثماني ، وكانت هذه الخطوة بالذات عاملاً جديداً في سير العلاقات الدولية بالنسبة للعثمانيين، فقد قام كولتز بتهيئة الجو المناسب للنشاط الاقتصادي الألماني في آسيا الصغرى ، قامت الشركات الألمانية بإرسال البعثات الاقتصادية إلى الدولة العثمانية ، فوصلت البعثة الألمانية إلى لبنان في سنة 1881 لغرض جمع المعلومات الاقتصادية ، ووصل عدد من الرحالة الألمان إلى ممتلكات الدولة العثمانية ، الأمر الذي أدى إلى ازدهار التجارة الألمانية ونجاح الصناعات الألمانية في الأسواق العثمانية. أدى مجيء القيصر وليم الثاني إلى العرش الألماني ، في سنة 1888 ، إلى تطور سريع في العلاقات الألمانية العثمانية ، فقد اختط القيصر سياسة جديدة لبلاده ، وتعد سنة 1890 بداية للسياسة الألمانية المسماة (بالسياسة العالمية Deutseh Political) التي من أهم مميزاتها اشتداد النزعة الاستعمارية واستثمار رؤوس الأموال ، فوقع البنك الألماني Deutseh Bank ، في (4 تشرين الأول 1888) على الاتفاقية النهائية لمد سكة حديد حيدر باشا بمسافة (485) ميلاً إلى أنقرة ، وقام القيصر بزيارتين للدولة العثمانية في سنتي 1889 و 1898 ، وكان لزيارة القيصر الثانية أهمية خاصة ، فقد عبر القيصر عن صداقته للسلطان وشعبه ، كما جاء في خطاب له بدمشق ، وفتحت أمام الألمان آفاقاً اقتصادية كبيرة. صاحب تطور المصالح الألمانية في الدولة العثمانية توجه الألمان نحو الخليج العربي ، وكان أول ظهور للألمان في الخليج يرجع إلى سنة 1897 حين عين الألمان نائب قنصل لهم في بوشهر ، وفي العام نفسه أسس روبرت فونكهوس مقرأً لشركة في لنجة على الساحل الشرقي من الخليج العربي ، فكان ذلك الخطوة التجارية الألمانية الأولى ، وبعد ذلك اتسع نطاق وعمل الشركة وصار لها فرع في البحرين في 1901 ، وبوشهر في 1904 ، والبصرة والمحمرة وبندر عباس في 1906 ، وعلى الرغم من أن الشركة ذات صفة شخصية عند تأسيسها ، لكن كان للحكومة الألمانية ضلع في نشاطها ، ولاسيما في تجارة الأسلحة.

أثار النشاط التجاري الألماني قلق بريطانيا ، وبلغت المنافسة التجارية لبريطانيا في مياه الخليج العربي حداً خطراً منذ سنة 1906 ، وذلك حينما أسس الألمان خطهم البحري والمعروف بخط همبورك-أمريكا، الذي أصبحت شركة فونكهوس وكالة له في الخليج ، وقد أدى ذلك إلى زيادة التجارة الألمانية بنسبة 100% ، وأصبحت أنتوب ANTWERB ، في بلجيكا ، وهمبورك في ألمانيا ، مصدرراً لكثير من التجارة بدلاً من بريطانيا ، واتسعت المنافسة الألمانية في الخليج العربي ، لبريطانيا لتشمل ميادين الاستيراد والتصدير والنقل البحري ، وقد استخدمت شتى الوسائل بقصد السيطرة أولاً والرياح ثانياً ، وقد أدى اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى إنقاذ المركز التجاري البريطاني من أن يفقد أولويته للألمان. وكان النشاط الألماني الآخر الذي أثار المنافسة الدولية في منطقة الخليج العربي ، هو حصول ألمانيا على امتياز سكة حديد بغداد سنة 1898 ، وقد تمت موافقة السلطان عبد الحميد الثاني ، في اليوم السابع من شهر آذار 1902 ، ولأسباب مالية رأت الشركة الألمانية أن تشارك أموال أخرى غير ألمانية كي توفر المال اللازم ، فعدل الامتياز على هذا الأساس واستقر ، في اليوم الخامس من آذار 1903 ، واحتوى امتياز السكة ، على أن يمد خط حديدي بين قونية-في آسيا الصغرى- والبصرة ، ويمد منه فرع إلى الخليج العربي عند نقطة تحدد بعد ذلك ، وللشركة الألمانية الحق في التنقيب واستخراج المعادن الموجودة في المنطقة ، على جانبي السكة المقترحة ولمدى عشرين كيلومتراً ، ولها أن تستخدم الرافدين ملاحياً بقدر تعلق الأمر بعملها ، ونص الامتياز على تكوين شركة جديدة مساهمة لإدارة المشروع مستقلة عن شركة سكة حديد الأناضول (الألمانية) ، وقد أسست الشركة فعلاً ، في اليوم الثالث عشر من شهر نيسان سنة 1903. قوبل مشروع السكة بردود فعل مختلفة من الدول الكبرى ، التي كانت تتنافس في المنطقة (بريطانيا ، فرنسا ، ألمانيا ، وروسيا القيصرية) ، وقد نظرت بريطانيا إلى المشروع بأنه هدف نسف المصالح البريطانية في شرق البحر المتوسط ومصر والعراق والهند ، وأن يكون أداة لضمان أسواق للصناعات الألمانية المتزايدة ، وكان اللورد كيرزون ، نائب الملك في الهند ، يعتقد بأن أي مشروع لبناء سكة حديد برلين- بغداد يستهدف السيطرة على ميناء الكويت المهم الواقع إلى الشمال الغربي من الخليج ، ولهذا سارعت بريطانيا إلى عقد معاهدة مع قائمقام الكويت عام 1899 ، وبخاصة بعد تقديم مشروع روسي لمد خط حديدي بين طرابلس على البحر المتوسط وأحد موانئ الخليج العربي في السنة السابقة ونصت على عدم منح حاكم الكويت وأبنائه وخلفائه من بعده ، حق الإقامة للممثلين الأجانب بدون موافقة مسبقة من قبل بريطانيا ، ولا يحق له التصرف بأراضيها بأي شكل من الأشكال لصالح دولة أخرى بدون إذن من بريطانيا ، وقد هدف حاكم الكويت من توقيع المعاهدة إلى تحويل خطوط الملاحة البريطانية من البصرة إلى الكويت ، الأمر الذي ساعد على الانتعاش الاقتصادي لإمارته ، أما بالنسبة لبريطانيا فقد أصبحت لهذه المعاهدة أهمية إستراتيجية واقتصادية ، وبخاصة بعدما قررت ألمانيا ، بأن الكويت هي النهاية الملائمة للخط الحديدي.

وقد ازدادت المعارضة البريطانية الروسية لسكة حديد برلين - بغداد بعد الاتفاق البريطاني الروسي حول تقسيم إيران سنة 1907 ، وأصبح هذا الموضوع عاملاً مهماً في إبعاد شقة الخلاف بين ألمانيا وبين التحالف الروسي الفرنسي البريطاني ، وفي سنة 1911 أمكن التوصل ، بموجب اتفاقية بوتسدام ، إلى اتفاق بين ألمانيا وروسيا بمقتضاه لا تضع العراقيل أمام بناء هذا الخط وقد تعهدت ألمانيا مقابل ذلك بالاعتراف بإدعاءات روسيا في إيران ، وعدم التدخل في الشؤون الإيرانية ، وترك مشروع سكة حديد بغداد خاتمين ، وفي أوائل عام 1914 وصلت ألمانيا إلى تفاهم مع فرنسا حول هذا المشروع حيث أقرت ألمانيا أن يكون النظام الحديدي في شمال الأناضول الذي يربط البحر الأسود بهضبة الأناضول من اختصاص فرنسا ، وكذلك فرع الخط الحديدي إلى الإسكندرونة وشمال سوريا.

وعملت الدولة العثمانية على تهيئة الظروف المناسبة لإنهاء المعارضة البريطانية ، فاستحصلت موافقة ألمانيا في عام 1909 على تعديل بعض نصوص امتياز السكة لسنة 1903 ، بقصد فصل الجزء الواقع بين بغداد والبصرة كي يستطيعوا المساومة مع البريطانيين ، فعدلوا نصوص مشروع السكة مع الألمان في آذار 1911 الذين تنازلوا عن مد الخط بين بغداد

والبصرة ، وكذلك عن بناء ميناء في البصرة ، فأبلغت الحكومة البريطانية ، الجانب العثماني ، أن كافة المصالح البريطانية يجب أن تضمن بشكل كاف ، وعدم محاباة دولة على حساب دولة أخرى ، وأن يكون لبريطانيا ممثلان في هيئة شركة سكة حديد برلين - بغداد ، وأن نهاية الخط تكون عند البصرة ، وأن لا يمد خط أبعد من البصرة باتجاه الخليج بدون اتفاقية مسبقة مع الإنكليز.

تم الاتفاق بين الدولة العثمانية وبريطانيا حول سكة حديد بغداد في آب 1913 ، وتعهدت الدولة العثمانية في الاتفاق بعدم التمييز بالنسبة للتجارة المحمولة بالسكك الحديدية وتعين عضوين بريطانيين في مجلس إدارة شركة سكة حديد برلين بغداد ، وعت البصرة هي نقطة الانتهاء بالنسبة للخط ، ولا يجوز تمديده جنوباً إلا بموافقة بريطانيا ، ونتيجة لهذا الاتفاق توصلت بريطانيا مع ألمانيا إلى اتفاق في حزيران 1914 ، تعهدت فيه بعدم وضع العراقيل أمام مشروع سكة الحديد ، ولكنها اتفقت مع ألمانيا على عدم البدء في إنشاء الفرع بين بغداد والخليج العربي إلا بعد اتفاق شامل تشارك في حكومات بريطانية وألمانية والدولة العثمانية، وذلك محاولة من بريطانيا في إضاعة الوقت وعدم السماح لألمانيا في الوصول إلى الخليج العربي ، غير أن قيام الحرب العالمية الأولى أوقف تنفيذ المشروع ، وأوقف كل أمل ألماني في الهيمنة والتحدي لمنطقة الخليج العربي.

ثالثاً: روسيا القيصرية والاتحاد السوفيتي والخليج العربي:

يمكن القول بأن المصالح الروسية في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي قديمة ، وترجع إلى القرن السادس عشر ، حينما أبدى القيصر الروسي رغبته بالاتصال بالهند تجارياً عبر جنوب شرقي بلاده ، إلا أن هذه الرغبة لم تتحقق ، وفي عهد بطرس الكبير ، خلال القرن الثالث عشر ، جرت مثل هذه المحاولة ، وحدثت بعض الأعمال الحربية عندما قام الروس باحتلال عدد من المدن والمناطق الواقعة شمال بلاد فارس ، وراجت فكرة غزو الهند في عهد القيصرية كاترين الثانية ونفذت هذه الفكرة في عهد القيصر بولص الأول عام 1801 وكان نتيجتها الإخفاق ، وتواصل النشاط الروسي في عهد الاسكندر الذي أحرز انتصارات مهمة على فارس عام 1813 ، ومن ثم عقد معاهدة (كولستان) في العام نفسه ، تلك المعاهدة التي كانت فاتحة النفوذ الروسي في بلاد فارس.

لم تنظر بريطانيا إلى تزايد النشاط الروسي ، نظراً معارضة ، وبخاصة وأن الدولتين كانتا تخوضان صراعاً مشتركاً ضد نابليون وازدياد المصالح الروسية في بلاد فارس بعد توقيع معاهدة (تركمان جاي) عام 1828 التي خسرت فيها فارس أقاليم جديدة وفرضت عليها غرامات حربية، أدى إلى ظهور المقاومة البريطانية لتزايد التدخل الروسي وبخاصة بعد توجيهِه روسيا كل اهتمامها نحو فارس ، بعد معاهدة برلين ، وحصولها على امتيازات واسعة ، منها امتياز مد لسكة الحديد في شمال فارس ، وفتح مصرف روسي يهدف في عمله لأغراض سياسية دون أن يكتفئ بالخسائر المادية ، وقام المصرف بمنح القروض للفرس بفوائد بسيطة.

أثار ازدياد النشاط الروسي واحتمال تقدمهم نحو الخليج العربي رجال الاستعمار البريطاني وأكد اللورد نورث بروك NORTH BROOK على هذه النقطة في رسالة كتبها من الهند في (20 آذار 1876) إلى وزارة الخارجية البريطانية ، وجاء فيها:

(يجب أن نعتبر أي امتداد للمناطق الروسية صوب الخليج العربي أو أية حماية روسية لسواحل ذلك الخليج خطراً مباشراً على الهند ، وهذا بحد ذاته كاف

-حسب ما اعتقد - لأجل استعمال القوة للمحافظة على سيادتنا الحالية في الخليج .)

وقد شغلت فكرة الزحف الروسي على الخليج العربي ، واحتمال تمركزها في موانئه أذهان كبار الساسة البريطانيين ورجال الجيش والبحرية ، وذلك بعد أن أصبح الهدف الأساس للقيصرة الروس ، في نهاية القرن التاسع عشر الحصول على مرفأ على الخليج العربي يؤدي إلى مياه المحيط الهندي الدافئة ، ووقف اللورد كيرزون ، الذي عين نائباً للملك البريطاني في الهند عام 1898 ، ضد مشاريع روسيا في فارس ، لأن أهداف السياسة الروسية -حسب رأيه- وهي وضع نهاية لإمبراطورية بريطانيا ، ويستترد كيرزون فيقول أنه لا يرى هدفاً غير هذا في نظام حكومة لا يقوم على حرية التصرف أو الفكر والتخطيط ، وأضاف أن الحكومة الروسية تتحرك بأمر الجنرالات ، كما دعا كيرزون رجال حكومته إلى الحفاظ على مركز بريطانيا الاستعماري في الخليج العربي وحذر قائلاً:

(أنني سأعتبر أي امتياز مرفأ يعطى إلى روسيا في الخليج العربي من قبل أي قوة إهانة متعمدة موجهة إلى بريطانيا العظمى ، واعتبر ذلك خرقاً للوضع الراهن واستفزازاً دولياً للحرب ، واعتبر أي وزير بريطاني يقبل التخلي لروسيا عن ميناء على ساحل الخليج العربي بأنه خانن لوطنه.)

وزادت الخشية البريطانية من النشاط الروسي ، بعد ظهور المشروع الروسي لمد سكة حديد بين الساحل السوري والكويت ، وساهم الخبير البحري الأمريكي (ماهان) في تصعيد القلق والخوف من الخطر الروسي ، ففي كتابه (مشكلة آسيا وتأثيرها على السياسة الدولية) حذر بريطانيا من التقليل من أهمية الخطر الروسي على إيران والخليج العربي ، وقال إن مجرد سيادة روسيا على إيران وأفغانستان سيجعلها تسيطر على أهم طريق تجاري وحربي للإمبراطورية البريطانية.

أما في كتابه (نظرة إلى الماضي والمستقبل) في العلاقات الدولية المطبوع في عام 1902 فقد قال:

(أن أي تنازل من جانب ببريطانيا في الخليج العربي ، سواء أكان ذلك حسب اتفاق رسمي معين ، أم كان مجرد إهمال لتجارتها المحلية .. يعرض للخطر مكاتة بريطانية البحرية في الشرق الأقصى ، ومركزها السياسي في الهند، ومصالحها التجارية في كليهما ، وكذلك الروابط الإمبراطورية بينها وبين استراليا.)

أما الحكومة الروسية فقد استمرت في سياستها إزاء فارس ، التي نظرت إليها بأنها قناة السويس الروسية ، وسعت في الوقت ذاته إلى زيادة نشاطها السياسي والتجاري في منطقة الخليج العربي ، فأرسلت إحدى بواخرها إلى الخليج العربي عام 1893 ، ورست الباخرة في مسقط واتصل ضباطها سراً مع فيصل بن تركي ، سلطان مسقط ، وفاوضوه في عقد اتفاقية سياسية مع الحكومة الروسية تكون أكثر ملائمة من الاتفاقيات المعقودة بينه وبين الحكومة البريطانية لكنه رفض ذلك لخشيته من بريطانيا وقد قامت الحكومة الروسية بتعيين ممثلين سياسياً لها في بوشهر ، وزوته بأوامر مشددة لبذل كل طاقته من أجل الارتباط مع الأمراء العرب في المنطقة ، وبخاصة من لم يدخل منهم في معاهدة مع بريطانيا.

وسيراً على هذه السياسة أرسلت الحكومة الروسية في آذار 1900 الطراد (الزورق البحري) جلياك Giagak إلى الخليج

العربي ، وعلى منته القنصل الروسي في الخليج ، وصرح قائد الطراد بأنه لا ينوي احتلال أي ميناء في الخليج، وهدفه فتح خط بحري للبواخر بين الموانئ الروسية والخليج العربي ، وتأسيس مصرف روسي في أحد موانئه ، وتأسيس محطة فحم في بوشهر ، وإبقاء طراد روسي بصورة دائمة في مياه الخليج العربي على أن يكون ميناء بندر عباس مقراً له ، واتصل الروس في التعاون مع روسيا ، لكن أولئك الأمراء رفضوا الدخول في أي علاقات في عام 1902 ببعض الأمراء العرب في الخليج ، وحاولوا إقناعهم بأهمية حكومة القيصر.

أثار النشاط الروسي وبخاصة محاولة الروس إيجاد مقر لهم في بندر عباس ، الساسة البريطانيون الذين عارضوا ذلك بشدة ، وقال أحدهم (إذا ما سمحنا للروس بالتمركز في بندر عباس فأتانا نكون قد تنازلنا عن جميع مركزنا في الخليج العربي دفعة واحدة .. أن بندر عباس هو ميناء بريطاني منذ أيام شركة الهند الشرقية) ، الأمر الذي سعد من التنافس والصدام بين الدولتين ، واضطرت روسيا إلى مساومة بريطانيا والتوصل إلى تسوية بينها في اتفاق (31 آب 1907) الذي تم بموجبه تسوية جميع الخلافات الرئيسية في الخليج العربي ، وقسمت إيران بموجبه إلى ثلاث مناطق ، شمالية تحت النفوذ الروسي ، والجنوبية تحت النفوذ البريطاني ، أما المنطقة الوسطى فقد جعلت منطقة حيادية ، وبموجب الاتفاق اعترفت روسيا بمنطقة الخليج العربي منطقة نفوذ بريطانية بلا نزاع ، واعترفت بالأفضلية البريطانية في جنوب إيران وإمارة الأحواز العربية ، وبذلك تخلصت بريطانيا من مزاحمة الروس لها في الخليج العربي ، ومع ذلك تعرض الاتفاق للنقد من قبل بعض الإنكليز الذين اعتقدوا إن بريطانيا لن تستفيد منه شيئاً ، لأن منطقة النفوذ الروسي تشمل كرمشاه وأصفهان ، وحتى العاصمة الإيرانية ، وفي هذه المنطقة أغلب مصادر الثورة ، في حين إن منطقة النفوذ البريطاني لم تكن غير مثلث صغير المساحة يقع على الخليج العربي.

وخلال الحرب العالمية الأولى (1914) انضمت روسيا إلى جبهة بريطانيا وفرنسا ، وخلال الحرب قامت ثورة أكتوبر الروسية عام 1917 وأعلن عن تأسيس الاتحاد السوفيتي ، وتبع ذلك تغييرات سياسية كبيرة ، ولم تظهر روسيا السوفيتية على مسرح السياسة في الشرق الأوسط عامة ، والخليج العربي خاصة ، مظهر روسية القيصرية ، فقد تغيرت الأساليب والوسائل للسياسة الجديدة ، كما وقررت الدعوة إلى عقد مؤتمر لشعوب الشرق في باكو -عاصمة أذربيجان السوفيتية- استمر من (8-1 أيلول 1920) ، وكان ذلك بداية توجه الأممية الشيوعية نحو المنطقة. حاولت روسيا السوفيتية إقامة حكومة شيوعية في شمال إيران ، وعندما فشلت عقدت الحكومة السوفيتية معاهدة مع إيران عام 1921 ، التي عدت تطوراً في العلاقات الإيرانية - السوفيتية ، ولم يكن للحكومة السوفيتية علاقات دبلوماسية مع الأقطار العربية ، عدا المملكة العربية السعودية واليمن ، وحتى في هاتين المملكتين أغلقت المفاوضات الروسية أبوابها عام 1938 ولم تظهر رغبة الاتحاد السوفيتي في الحصول على نفوذ في منطقة الخليج العربي إلا في فترة 1939-1941 حين أصر مولوتوف ، وزير الخارجية السوفيتي ، في محادثاته مع ريبنتراب وزير خارجية ألمانيا النازية ، على أن تكون جميع المناطق إلى الجنوب من باكو في اتجاه الخليج العربي مناطق نفوذ روسية ولكن تغير مجريات السياسة الدولية ، وإعلان هتلر الحرب على الاتحاد السوفيتي ، ترك موضوع الخليج العربي وثيقة تاريخية فقط .

رابعاً: الولايات المتحدة الأمريكية والخليج العربي:

تعود بداية العلاقات الأمريكية مع الخليج العربي إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وكان النشاط التجاري أبرز ما يميز المصالح الأمريكية خلال القرن التاسع عشر ، وقد نجح التاجر الأمريكي آدموند روبرتس ROBERTS في عقد معاهدة تجارية مع سلطان عمان السيد سعيد بن سلطان في (21 أيلول 1833) وقد سمح السلطان سعيد للأمريكيين بالتجارة في الموانئ التابعة له ، وتعين قناصل أمريكيان في مسقط والممتلكات العمانية الأخرى في زنجبار وشرقي أفريقيا. أضعفت الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865) النشاط التجاري الأمريكي في منطقة الخليج العربي ، ولم يظهر النشاط الأمريكي مرة أخرى في مياه الخليج إلا في سنة 1879 عندما قام القائد البحري روبرت ولسن شونلدت SHUNELDT بزيارة شاملة إلى الخليج العربي شملت مسقط وموانئ الخليج العربي ثم شط العرب والفرات ، وقد أعقب هذه الزيارة ازدياد النشاط الأمريكي ، وقيام الحكومة الأمريكية بتعيين قناصل ونواب قناصل أمريكيان في ولاية بغداد ، بعد أن كانت القنصلية البريطانية تتولى الإشراف على الرعايا الأمريكيان في العراق بصفة غير رسمية، إما المصالح التجارية الأمريكية في العراق فكانت ضئيلة بوجه عام واقتصرت على استيراد المنتجات العراقية كعرق السوس والمصارين والصوف ، في حين كان النفط يمثل النسبة الكبيرة من حجم الصادرات الأمريكية للعراق إلى جانب منتجات صناعية أخرى.

وقبل انتهاء القرن التاسع عشر حظيت منطقة الخليج العربي باهتمام مباشر من المبشرين الأمريكيين ، ففي ثمانينات القرن الماضي ظهر النشاط التبشيري في شمال العراق ، وأسس المبشرون الأمريكيون أول مركز تبشيري لهم في مدينة الموصل وفي عام 1889 أسست الإرسالية العربية ARABIAN MISSION لغرض نشر المسيحية في الجزيرة العربية والخليج العربي ، بعد دراسة أولية للغة العربية في سوريا ، واستطاعت هذه البعثة تأسيس أول مركز تبشيري لها في البصرة عام 1891 ومن مركزها في البصرة وسعت نشاطها إلى مناطق الخليج العربي ، كالبحرين ومسقط والكويت والاحساء والقطيف وساحل عمان.

وإزداد النشاط التبشيري مع بداية القرن العشرين ، وبدأ يرافقه نشاط في المجالات التعليمية والطبية ، أسس المبشرون في عام 1910 مدرسة الرجاء العالي والمدرسة الأمريكية للبنات ، كما قاموا بفتح العديد من المستشفيات لأغراض العلاج الطبي ، فافتتح مركز طبي في عام 1910 ، وقام الأطباء التابعون للبعثات التبشيرية بزيارة إلى الرياض لمعالجة عبد العزيز آل سعود وأفراد عائلته ، وقاموا بزيارات إلى مناطق أخرى من الجزيرة والخليج العربي.

لقد جاء النشاط التبشيري متمشياً مع متطلبات المصالح الأمريكية المتنامية في الخليج العربي ، وكان خطوة تمهيدية لدعم هذه المصالح وما يعقبها من نفوذ سياسي أمريكي في المنطقة ، وليس ثمة شك في أن مثل هذا الهدف لا يمكن تحقيقه دون توثيق أواصر العلاقة مع سكان المنطقة وإبراز الوجه المشرق للتبشير، من خلال الخدمات الطبية والتعليمية التي كانت تقوم بتقديمها البعثات التبشيرية للسكان مستغلة بذلك تخلف المنطقة عما وصل إليه المجتمع الغربي من تقدم ، ولا تتوقف المهمة التبشيرية عند هذا الحد ، بل تولى بعض المبشرين بنفسه مهمة الوكيل عن مصالح بلاده ، فقد استطاع أحد الأطباء المراقفين للبعثة التبشيرية الأمريكية في البحرين من الحصول على امتياز نفط قطر لشركة ستاندار أويل كومبني أوف كاليفورنيا.

قوبل النشاط الأمريكي في الخليج العربي ، منذ البداية ، بعدم الارتياح من الحكومة لبريطانية ، وبخاصة بعد توقيع الاتفاقية التجارية مع السيد سعيد، وزداد التنافر بين الدولتين بازدياد المصالح الأمريكية في المنطقة ، ودخل مرحلة جديدة بعد أن أصبح النفط محور هذا التنافس ، فقد تمكنت شركات النفط الأمريكية الكبرى ، خلال حقبة قصيرة نسبياً ، من الحصول على امتيازات نفطية مهمة في منطقة الخليج العربي ، وكان لدعم القوى الذي قدمته وزارة الخارجية الأمريكية لهذه الشركات أثر كبير في ذلك.

وقفت الولايات المتحدة موقفاً معارضاً لمنع بريطانيا من الانفراد بثروة العراق النفطية ومع إن بريطانيا تمكنت من تسوية خلافاتها مع فرنسا حول نفط الموصل في مؤتمر سان ريمو في (24 نيسان 1920) إلا أنها لم تتمكن من تجاوز المنافس الأمريكي ، فقد عبرت أمريكا عن احتجاجها الشديد للتسوية الأخيرة ، وطالبت بتطبيق سياسة الباب المفتوح ، وفسح المجال أمام الشركات الأمريكية للحصول على حصتها من نفط المنطقة ، وإزاء ذلك اضطرت بريطانيا في الدخول في مفاوضات طويلة ومعقدة مع الجانب الأمريكي انتهت بالتوقيع على اتفاقية الخط الأحمر في (31 تموز 1928) حصلت فيها المصالح الأمريكية الممثلة بشركة أنماء الأدنى على (75 و 23 %) من أسهم شركة النفط التركية (شركة نفط العراق). وفي مناطق الخليج العربي ، حصلت شركة ستاندر أويل أوف كاليفورنيا في عام 1928 على امتيازات النفط في البحرين ، بعد سلسلة من المناورات والمفاوضات ، بسبب معارضة الحكومة البريطانية التي أصرت على أن الشركة التي تحصل على امتياز النفط في البحرين يجب أن تكون بريطانية أو مسجلة باسم بريطاني ، وكانت الحكومة البريطانية مستندة في ذلك إلى التعهد الذي حصلت عليه من شيخ البحرين في سنة 1914 بعدم منح أي امتياز نفطي في البحرين لأي طرف دون موافقة الحكومة البريطانية ، وبعد تدخل وزارة الخارجية الأمريكية تم التوصل إلى حل وسط احتفظت مقتضاه شركة ستاندر أويل أوف كاليفورنيا بامتياز نفط البحرين عن طريق شركة تابعة لها مسجلة في كندا وذات إدارة بريطانية ، وهذه الشركة هي شركة نفط البحرين التي أسست في بداية سنة 1930.

وهكذا استطاعت الولايات المتحدة ، نتيجة لجهودها المتواصلة في الحصول على الامتيازات فأصبح للمصالح الأمريكية (75 و 23 %) من أسهم شركة نفط العراق و (50%) من أسهم شركة نفط الكويت و (100%) من أسهم امتيازات نفط السعودية والبحرين وحصلت على امتيازات نفطية في قطر ودبي والشارقة ورأس الخيمة وأبو ظبي وكلبا وعجمان وعمان ، إلا أنه لم يتم اكتشاف النفط في أي من هذه المناطق حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. أثار النجاح الذي حققته الولايات المتحدة الدوائر البريطانية التي عدت منافسة لنفوذها في المنطقة ، واتضح ذلك من المذكرة التي قدمتها القيادة العسكرية البريطانية في العراق إلى وزارة الطيران البريطانية في عام 1934 والتي ذكر فيها ما يلي: (أنه منذ أكثر من مائة عام لم يكن النفوذ البريطاني مهدداً في الخليج مثلها هو عليه الآن ، وإن الحكومة البريطانية كانت تتخذ في الماضي سياسة قائمة على عدم التدخل في الشؤون الداخلية ، ولكن في الوقت الحاضر هناك الكثير من الأمم تتدخل في شؤون الخليج ، فاستشاف النفط أظهر الولايات المتحدة الأمريكية على المسرح) ، ثم تحدثت المذكرة عن مركز بريطانيا في الخليج العربي فوصفته بأنه أصبح في وضع جديد لم تكن معتادة عليه في الماضي وتحت الحكومة على اتخاذ خطوات فعالة لتأكيد نفوذها فيه.

ويمكن القول بأن الحرب العالمية الثانية والسنوات التي أعقبها كانت نهاية وبداية عهد جديد في تاريخ السيطرة الاستعمارية في الخليج العربي ، ألا وهو ظهور دور الولايات المتحدة قوة مؤثرة في المنطقة وضعف دور بريطانيا .